قصصنا الشعبي

للدكتور

فؤاد حسنين علي

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

pdfkan.com

مقدمة

القصة هى أقدم مظهر من مظاهر التاريخ ، وأول صورة للإنسانية فى طفولتها . فهى صدى الخوف والاضطراب ، ومظهر القوة والجبروت ، ومعرض اللذة والفرح أو الحرمان والألم . القصة مرآة الطفولة وصورة الحياة ، هكذا كانت ، وهكذا هى ، وستكون . القصة هى هذا الضرب من الأدب الذى يعنى بالنفس البشرية ويعرضها لنا كما هى على سجيتها ، وكما عرفتها الحياة . لذلك لم يخل أدب من آداب العالم منها سواء كان هذا الأدب شرقيا أو غربيا ، رفيعا أو وضيعا . القصة هى التى سايرت العصور وجارت الشعوب . لذلك فهى فصل ممتع من سفر تاريخ البشرية ، كما أنها مظهر من مظاهر الخيال الذى لا بد من توافره فى الشعر والنثر . ومن هذه الناحية أيضا هى أنموذج من نماذج الأسلوب وصيغة من صيغ الحكاية والأخبار والتأليف .

وبينما تتخذ الأسطورة من الآلهة أبطالا ، وتعنى الملحمة بالبطولة ، والبطولة المطلقة ، وتحدثنا عن أعمال أبطالها حديثا أقرب إلى المعجزات منه إلى الأعمال البشرية ؛ إذ بالقصة تقف موقفا وسطا بين الأسطورة والملحمة لأنها تعنى بالإنسان قبل كل شىء ، وبحالته النفسية ، ومن هذه الناحية كانت هى الخطوة السابقة للأسطورة

والمرآة التى تنعكس عليها العقيدة الدينية الفطرية .

لـكن يجب ألا نفهم من هـذا أن القصة وهى ملك مشاع بين سائر الشعوب واحدة عند سائر الأمم ، فنحن نعلم مثلا أن القصة الهندية تغاير العربية ، والأخيرة غير القصة الغربية بالرغم من وجود العوامل المشتركة بينها ، وذلك لأن لـكل شعب بيئته الخاصة ، وطبيعته الخاصة ، وظروفه الخاصة ، وكل هذه العوامل تكيف نفسيته ولا شك تكييفا خاصا يظهر أثره بصورة واضحة من قصصه . فالحقيقة المسلم بها مثلا أن الخالق منح العربى حظا وافرا من الخيال والقدرة على أن يصوغ من المادة المحيطة به قصة لطيفة جميلة ، كما أن هذه العقلية العربية تمتاز كغيرها من عقليات الشعوب السامية بإعادة تأليف القصص القديمة التى توارثتها منذ أقدم العصور ، وإظهارها فى ثوب يكاد يكون جديدا . وكتبنا الدينية سواء منها السماوية وغير السماوية ملأى بشتى القصص ومختلف الأساطير والملاحم المتصلة بالنفس البشرية اتصالا مباشرا ، لذلك أصبح من السهل علينا أن نتعرف إلى خلق القصة العربية وطريقة العربى فى الإفصاح عن نفسه ثم إلى أى حد نجحت هـذه القصة خاصة فى العصور الوسطى فى غزو العقلية الغربية والتغلغل فى الآداب الأوربية ، ودراسة مثل هـذه الظاهرة تطلعنا ولا شك على مدى استعداد الآداب الأجنبية فى قبول العناصر الأدبية الأخرى . وهذه الظاهرة تعاون مؤلخ الأدب المقارن على الاهتداء إلى القوانين الجديدة التى تمتاز بها الآداب المختلفة .

لكن يجب ألا يتبادر إلى ذهن القارئ أن تاريخ القصة أو تتبعها فى الآداب عامة من الأمور السهلة اليسيرة ، وذلك لكثرة القصص أولا ، وتعدد اللغات التى تحكى بها أو تدون فيها ثانيا ؛ هذا إلى جانب أن القصة الواحدة قد تتطور عناصرها فى الشعب الواحد الذى نشأت فيه تطورا قد يبعدها عن طبيعتها الحقيقية فكل هذه العقبات كثيرا ما تقف فى طريق دارس القصص ومؤرخه .

وبالرغم من كل هذه الصعوبات التى تعترض الباحث نستطيع أن نتحدث عن القصة ونشأتها ، تطورها وانتشارها ، ولهذا السبب وضعت هذا الكتاب ، ولهذا السبب أيضاً سأشير إلى جهود العلماء التى بذلت فى هذا السبيل ، وأسرع وأقرر أن القصة السامية كأختها الهندية تمتاز بقدم العهد وطول العمر بخلاف قصص الشعوب الأخرى التى هى أحدث بكثير من أختها الشرقية ، ومن هنا تركت الشرقية فى الغربيـة أثراً بعيداً ، وأصبح اليوم من السهل إرجاع العناصر الشرقية فى الآداب الأوربية إلى منابعها الأولى ، ويكفى أن أشير هنا إلى قصص ألف ليلة وليلة وبرلام ويواسف ، فالأخيرة عبرت الهند إلى بلاد العرب عن طريق فارس ، ومن ثم إلى أوربا حيث غزت عالم القصص الغربى وتغلغلت فى شتى آداب القارة الأوربية من شمالية ، وأنجلوسكسونية ، وكلتية ، وصقلبية .

وفى هذا الكتاب أيضاً سأعرض للقارىء أشهر القصص العربية المتداولة ومنها ما هو عربى ومنها ما هو دخيل ، كما حرصت

أيضاً على ذكر شيء حول الأساطير السامية القديمة للصلة الوثيقة بينها وبين قصصنا عامة ، وأفردت فصلا للكلام عن مصدر القصة وآخر عن تكوينها . وأرجو أن تتاح لى الفرصة فأرجع لهذا الموضوع ثانية وأحدث القارئ عن مجموعة أخرى من قصصنا الشعبى سواء تلك نشرت أو التى ما زالت محفوظة فى خزانات المخطوطات .

فؤاد حسنين

obeikandl.com

مصدر القصة

لعل السر فى نجاح القصة وانتشارها هـذا الانتشار الذى طغى على الشعر والشعراء هو اتصالها بالطبيعة وصدق تعبيرها عن النفس الإنسانية ، فالقصة تجعل الجماد حيا ، كما تترك الطيور تتحدث ، والأحجار تتحرك وتتكلم ، وهى تمزج بين الإنسان والحيوان والنبات والجماد وسائر مظاهر الكون وقوى الطبيعة ، وهى تتحدث عن الظاهر والباطن ، وعن عالمنا وسائر العوالم الأخرى من نورية ونارية . القصة هى هذه القطعة الأدبية التى تسمح للمغنى بالغناء ، والرسام بالرسم ، ومن هنا عبر بعض العلماء عنها بقوله إنها « شعر الرومنتيك » لقدرة مؤلفها على التعبير عن طريقها عن كل عواطفه ، ومشاعره ، وسائر رغباته ، فيسمو إلى أعلى مراتب الفن الرفيع .

فإذا كان هذا هو حال القصة وهذه هى طبيعتها وجب علينا أن نرجع إلى الوراء إلى الديانة الفطرية لنفهم على ضوئها عناصر القصة فلا تبدو لنا وكأنها ألغاز أو خرافات ، ونُدرك سر التمسك بها ، والعناية الموجهة إليها .

الدين بمعناه العام المصطلح عليه هو العلاقة بين الإنسان من ناحية ، وبين القوة التى فوق طاقته من ناحية أخرى . وهذه القوة

هى التى تهيمن عليه ويؤمن بها ، فيعبر عن ذلك بالضعف والعجز عن تمام الاعتماد على نفسه ، وبالخوف وإقامة الصلاة وتأدية الطقوس الدينية خاصة ما يتصل منها بتقديم القرابين وغيرها . وتختلف هذه العلاقات باختلاف القوة التى يدين الإنسان بها ، وذلك لأنها شىء نسبى يختلف طوراً حسب الزمان فقط ، وطوراً حسب المكان فقط ، وطوراً حسبهما معاً ، وهذه هى الأسباب التى أدت إلى تنوع الديانات واختلاف العقائد بالرغم من إتفاقها جميعاً فى ظاهرة واحدة ألا وهى الظاهرة النفسية التى تكفل للإنسان حياة دنيوية سعيدة ، كما تزود الجنس البشرى بسلاح قوى للدفاع به عن نفسه ضد الفناء . ولا شك فى أن العمل على المحافظة على هذا الجنس هو الهدف الذى تنوعت معظم الديانات فى السمى إليه والعمل على تحقيقه ، لذلك أخذت تعنى بالإنسان منذ ولادته حتى وفاته ، فهى تحتفل به عند ولادته ، وعند ختانه ، وعند زواجه ، ومن ثم فهى تحيطه بشىء غير قليل من التعاويذ والأدعية حتى لا يمسه مكروه ، وتمضى حياته سعيدة خصبة . ولم يقف اهتمام الأديان بالإنسان عند ذلك الحد بل نراها تتخذ الإجراءات اللازمة التى تكفل له المحافظة على حياته ضد الطوارئ الطبيعية ، ففرضت الصلوات ، وأوجدت الأدعية والتعاويذ وسائر الطقوس الأخرى ، وهذا ما يعلل لنا وجود الكثير من العادات الشعبية خاصة ما يتعلق منها بالنسل . وهذه العادات الشعبية هى اتصال مباشر بالطبيعة وهو يختلف قلة وكثرة حسب

نصيب أصحاب كل دين من ثقافة ومدنية ؛ إذ كلما زاد نصيب الفرد من الحضارة كلما أخذت علاقاته بالطبيعة تضعف لأنه يصبح فى حالة عقلية تمكنه لحد ما من أن يتقى فيضان الأنهار ، وويلات الصواعق مثلا من ناحية ، ويعلل حدوث الزلازل وثوران البراكين ، وهبوب الزعازع والأعاصير ، وقصف الرعد ووميض البرق من ناحية أخرى بخلاف الإنسان الفطرى الذى يسند كل عمل من هذه الأعمال إلى روح من الأرواح . فالطبيعة عنده كائن حى بمعنى أن كل ما فيها حى ؛ فالحجر مثلا ما دام قادراً على قتل الفرد حى ، فالحياة ليست قاصرة على الإنسان والحيوان والنبات بل هى فى كل جزء من أجزاء الطبيعة ، فالسيف مثلا كائن حى ما دام صالحاً للقتل ، وإن فشل فهو إما ميت وإما هناك قوة سحرية أوقفت حياته فيجب مقاومتها ، ولن يتم ذلك إلا بفضل قوة سحرية أخرى . وهذه النظرية أعنى نظرية وجود الحياة فى كل كائن هى الأساس الذى بنيت عليه الديانات المعتمدة على الخرافات مثل (فتيشمس) . وبعد ذلك أخذ يقدس الإنسان كل شىء له قوة عجيبة كالشفاء من المرض أو الجرح أو جلب الحظ أو الإتيان بعجيبة من العجائب لأنه فى اعتقاده أن هذه الخصائص ، وتلك الصفات لا بد وأن تكون صادرة عن قوة فوق قوى الإنسان الطبيعية ، فالنتيجة المنتظرة لمثل هذا الاعتقاد إذن أن يتصور الإنسان الطبيعة عبارة عن مجموعة من القوى التى تعمل بلا انقطاع ، والتى تكيف حياتنا الاجتماعية تكييفاً قد يكون خيراً ، وقد يكون

شراً ، وقد يكون مزيجاً منهما . والإنسان الأنانى بالطبع أخذ يحرص على الاستفادة مما يسبب له النفع ، ويدفع عنه الضر . وللوصول إلى ذلك لجأ إلى مختلف الطرق وشتى الوسائل من داخلية كامنة فيه أو خارجية تحيط به . فبعض الناس رأى فى نوع خاص من الحيوان عوناً له يساعده على بلوغ مأربه ويقف لى جانبه لاتقاء عوادى الزمن ، وجماعة أخرى من الناس آنست إلى نبت من النباتات ، ومن ثم بولغ فى احترام ذلك الحيوان أو هذا النبات حتى أصبح شعاراً لبعض الجماعات البشرية وشعاراً مقدساً . يعنى بعبارة أخرى مهد لنشأة مذهب الـ (توتوميزم) . ففى هذا النوع من الأديان نجد أن الصلات بين الإنسان والحيوان من ناحية ، والإنسان والنبات من ناحية أخرى تقوى قوة يصعب علينا تفريقها ، فينهض الإنسان بدوره ويؤثر فى الطبيعة كما تؤثر الطبيعة فيه ، فيلجأ إليها ليستمد منها القوة التى تساعده على حفظ نوعه ، فاعتقد منذ القدم مثلا أن فى الماء تعيش عرائس البحر كما يعيش المارد ، والاعتقاد شائع فى مصر أن البحر ملاك طاهر ، وأن الإنسان إذا ارتكب فيه منكراً ابتلى بمصيبة فادحة ، وهو إلى جانب ذلك موضع للقسم (وحياتك يابحر ياطاهر) ، ومن ثم اتخذ الدين الإسلامى من الماء وسيلة للطهارة ، واعتقد الناس أن فيه قوة الشفاء من الأمراض أو تجديد القوى ، ومن الناس من يعتقد أنه مجلبة للحمل ، ولعل السبب الذى حمل الإنسان على مثل هذا الاعتقاد هو أنه رأى الماء يغمر الأرض المجدبة القاحلة

فما تلبث إلا أن تعود إليها الحياة ثانية فتنتج حباً ونباتاً وجنات ألفافاً. وهذا النوع من العقيدة ما زال موجوداً حتى يومنا هذا، فكلنا يعلم بئر زمزم وقداستها. وفى مدافن أسيوط توجد بئر قذرة يقال إن قطباً من الأقطاب يسكنها ويحج إليها الدهماء لمختلف الأغراض التى سبقت الإشارة إليها. ومن ثم توجد بئر أخرى يطلق عليها بئر يوسف إلا أن لمائها خاصية أخرى وهى الشفاء من الكساح، وتوجد ساقية تعرف الآن باسم (الساقية المندورة) كثيراً ما سمعت العجائز يتحدثن عن معجزتها فى الحمل. وما أعلمه عن أسيوط قد يعلم غيرى الكثير من نوعه فى الأنحاء الأخرى، وما قلته عن الماء أستطيع قوله أو ما يشبهه فى الحجر مثلا. فالحجر الأسود تركه الإسلام قائماً ولم يقض عليه، والأحجار الكريمة وما يدور حولها من خرافات وعقائد ليست بالأمر المجهول، ومن الأحجار تحت الإنسان الأصنام وقدسها.

مظهر آخر من مظاهر تقديس الطبيعة وهو يكون عنصراً هاماً من عناصر القصة هو الأشجار، فهى ظاهرة موجودة فى سائر الأديان وترجع فى الأصل طبعاً إلى اعتبارها أحد مصادر الحياة للفرد، فمن النادر أن نجد موضعاً مقدساً أو مكاناً لولى من الأولياء يخلو من شجرة، فمريم جاءها المخاض تحت شجرة، ولما جاء المسيح مصر نزلت به أمه عند شجرة، وبيعة النبى (صلعم) كانت تحت شجرة، وتلقى (بوذا) الوحى عند شجرة، ثم سدرة المنتهى، ثم

الفاكهة المحرمة ، والأخرى المحللة ، ونبات الحيـاة فى أسطورة جلجمش ، ولا يخلو قبر من القبور من شجيرة ، وعند زيارة المدافن نضع عليهـا سعف النخيل أو غيره رحمـة للأموات ، ويحتفل المسيحيون بأحد السعف ، والمسلمون بأربعاء أيوب . وإلى جانب الشجرة نجد بعض الأعشاب أيضاً مثل الشيح فحرقه يطرد الأرواح الشريرة ، ويشفى من الحسد . وغير الأشجار والعشب نجد الحبوب فالسيد المسيح أكل خبزاً وقال هذا جسدى ، وإذا بلغ الوليد سبعة أيام وضع فى غربال مغطى ببعض الحبوب ، والعادة جارية فى أن نعلق فى منازلنا حزمة من سنابل مختلف الحبوب والبقول الجديدة عند موسم الحصاد .

ويقدس الإنسان غير ما ذكرت من مظاهر الطبيعة «الحيوان» اكتساباً لفائدته وتجنباً لضرره ، ففى مصر لا نقتل الطائر المعروف باسم عصفور الجنة لأنه يحمل تحت كنفيه مفاتيحها ، وفى كل منزل من المنازل (عامر) وهـذا العامر هو ثعبان يحافظ على البيت ولا يجوز إيذاؤه ، والديانات القديمة ملأى بتقديس الأشجار والحيوانات والدين الإسلامى يعترف بالضحية كما نقدم نحن إلى اليوم الحيوانات كنذور للأولياء أو عند عمل الزار ، وينحر العرب الذبائح عنـد القسم لأن الدم يكسب القسم قوة ويصبغه بصبغة القداسة .

أما النار فقـد اعتقد الإنسان فيها منذ القدم أنها تشرد الجن وتبـدد الظلام لذلك قدستها الزرادشتية ، والديانات الهندية .

ولم يقف الأمر عند تقديس هذه العناصر الأرضية بل تعداها إلى الأجرام السماوية كالشمس والقمر والمشترى والشعرى حيث نجد لكل منها آلهة كما أقسم القرآن الكريم بها غير مرة . والشيء الجدير بالذكر هنا أن الإنسان اعتبر الكائن الآدمى مظهرا آخر من مظاهر الوجود التى يجب تقديسها . لذلك نشأت عند بعض الشعوب الفطرية هذه الفكرة فقدست الإنسان حيا أو ميتا ، فإذا توفى فرد من أفراد قبيلة ، وكان قد أظهر إبان حياته شيئا من القدرة فى عمل من الأعمال ، وجدنا قبيلته تبقر بطنه ، وتخرج كبده وتقتسمه فيما بينها حتى يكتب لكل فرد شيء من هذه القوة التى كانت تملأ ذلك القديس إبان حياته ، ومن هنا نشأت فكرة أكل لحوم البشر المنتشرة عند بعض القبائل الفطرية الإفريقية . ومما تجب ملاحظته هو أن القوة الحية فى الطبيعة لا تكتفى بوجودها فيها فقط بل تتجمع ، وتكون فيما بينها عالما آخر يتجلى لنا فى الحوادث التى تقع فى الوجود الذى هو عالم من الأرواح لن نستطيع أن نهيمن عليه ، ونسخره لمنافعنا أو نكبح جماحه فلا يتسبب فى أضرارنا بمجرد قوانا الجسدية العادية ، لذلك لجأ الإنسان الفطرى إلى السحر ، واستعان بأفراد قبيلته للقيام بهذا العمل ، فاجتمعت العشيرة واختارت من بين أفرادها شخصا آنست فيه هذه القوة السحرية ، ومن ثم ولته أمرها ومع مرور الزمن أصبح هؤلاء السحرة رؤساء للعشائر والقبائل إلى جانب قيامهم بالطقوس الدينية والمسائل السحرية ، ولم يقف أمر الساحر

عند هذا الحد بل نراه يصبح شخصا مقدسا يتنبأ لقومه بالمستقبل ، وهو الذى أطلق عليه العرب مثلا كاهنا ، وقد لعب هؤلاء الكهان دورا هاما فى الحياة العربية حتى جاء الأنبياء وقضوا عليهم . وفى يومنا هذا إذا مرض جاهل لجأ إلى مشعوذ فكتب له الأحجبة وأحاطه بالتعاويذ ، وإذا فشل ذلك النوع لجأ إلى نوع آخر من الشعوذة ألا هو الزار . وقد علل بعض العلماء انتشار هذه العقائد الخرافية بأنها بقايا تلك الديانات الفطرية التى كانت تؤمن أيضا بالقوة الكامنة حتى فى أرواح الموتى ، وقد ساعد على تصديق مثل هذا الرأى تقدم علم استحضار الأرواح ومخاطبتها ، والشىء الذى نعرفه هو أن الإيمان بأرواح الموتى وقوتها قديم ، لذلك سعى الإنسان منذ العصور الغابرة إلى استرضائها . فقدم لها ألوانا شتى من الأطعمة والأشربة ، ونشأت مع مرور الزمن طقوس دينية خاصة بالروح والقبر كما كان الأمر عند قدماء المصريين ، وعندنا اليوم فى صورة أخرى تختلف عن السابقة بعض الاختلاف . وهذه الحالة ترينا تدريجيا كيف تطورت فكرة الروح وفكرة عدم الفناء فنحن فى مصر ما زلنا نزور القبور والأضرحة ونتوسل بالموتى لقضاء حوائجنا .

لكن ليس الإنسان روحا وجسدا فحسب بل هو عالم قائم بذاته أيضا ، وقد رأينا من قبل كيف أنه امتزج بالطبيعة امتزاجا يصعب علينا انتزاعه منها ، فهو يعتقد فى الخرافات ويؤمن بما يسمى

« توتوميزم » فالإنسان من هذه الناحية جملة أرواح لأن كل ظاهرة من ظواهر نفسه روح على حدة . فإذا نظر فى الماء أو المرآة ورأى نفسه فهذه هى روح ، وإذا سار ورأى ظله فهذه روح ثانية ، وإذا نام ورأى حلما فهذه روح ثالثة ، وتنفسه روح رابعة ، وقوته على الحركة روح خامسة ، والنفس الذى يتركه عند الموت روح سادسة ، وهلما جرا ، وتعتقد بعض قبائل جنوب غربى إفريقيا أن للانسان أربع أرواح : روح تعيش إلى الأبد ، وثانية تتقمص حيواناً بعد موت صاحبها ، وثالثة تبقى فى ظل الجسد ، ورابعة هى روح الأحلام وهى تختفى عندما يستيقظ الإنسان ، وقدماء المصريين كانوا يقدسون روحين (كا) وهى الروح التى تلازم القبر و (با) وكانت تعيش فى العالم السفلى ، ونحن نعتقد اليوم فيما يسمى قرينة ، والنتيجة التى نخرج بها هى أن الموت ليس معناه القضاء النهائى على سائر الأرواح بل على معظمها فقط . أما روح حيوية الإنسان فتبقى وتقوم بعملها ولعل هـذا ما يعلل لنا فكرة الاعتقاد بأن للميت من القوة فى قبره ما يجعله يهيمن على كثير من الأسرار الكونية ، فنحن نعتقد اليوم أن الميت يعلم بوقوع الحوادث قبل الحى ، ونحن نتوسل بالموتى لقضاء حوائجنا ، ونحن نحسب للموتى فى قبورهم حسابا ، فإذا توفيت امرأة مثلا وتزوج بعلها أخرى وجب على المرأة الثانية ألا تزور قبر الأولى حتى لا تدب الغيرة فى المتوفاة ، وإن كانت قد تركت خلفها أطفالا فإن أقاربها يحضرون الأطفال معهم لاعتقادهم أن أمهم ستسر فى

قبرها برؤيتهم . ونحن المسلمين ما زلنا نقدم اليوم مختلف ألوان الأطعمة والأشربة — على روح الأموات .

فالإنسان إذن لا يموت كله و (أنا) لن تفنى ، وفى الصعيد يعتقد القوم فى شىء يشبه هذا ، فإذا قتل شخص فإن روحه تظهر عند القيلولة أو عندما يرخى الليل سدوله وفى هيئة القتيل وتتلفظ بنفس العبارات التى نطق بها القتيل عند موته ، ويطلق القوم على هذا الشبح (الصاروخ) . وسواء صحت هذه القصة أو لم تصح فهذا لا يهمنا الآن والذى يعنينا هو أن فكرة عدم الفناء ما زالت حية متأصلة فى الشعب .

ولم يقف تقديس الروح عند هذا الحد بل نرى جسد الإنسان ينظر إليه كجسد للروح فيكتسب قداسة وهمية ، وكل شىء فيه حتى الأظافر والشعر . وقد ذهب الإنسان بعيدا فقدس حتى ما يلامس الجسد وهذا ما يفسر لنا السر فى استخدام السحرة الشىء الذى يسمونه (ريحة) وسواء كانت هذه الكلمة نسبة إلى رائحة الإنسان أو روحه فتركيب الكلمتين من أصول واحدة يفيد ولا شك قوة العلاقة بينهما على الأقل إن لم يكن مدلولها واحدا .

من هذا العالم استمدت القصة عناصرها وأمعنت فى تكييف نفسها بهذا العالم حتى أصبحت وكأنها صورة مصغرة منه ، فبطل القصة عنصر هام من عناصر القوة كما تعرضه لنا وقد امتزجت سائر عناصره بالعناصر الطبيعية المختلفة التى عرضتها من قبل والتى بينت علاقاتها

بالفرد وعلاقات الفرد بها . ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل نجد القصة تمعن فى تفصيل هذه العلاقات ، فطورا تجعل البطل الثوار الذى قتل المئات وأسر الآلاف يضعف أمام طائر من الطيور أو حيوان من الحيوانات سلطه عليه ساحر أو ساحرة بل نكاد لا نقرأ قصة إلا ونجد بطلها قد مسخ قردا أو كلبا والقصة قد لا تقنع بهذه العوامل الأرضية فتحلق فى الاعالى حيث الأفلاك والملائكة وتهبط فى الاسافل حيث الجن والشياطين ، وكثيرا مانجدها تغوص فى أعماق المياه حيث المارد وعروس البحر . والقصة فى جميع هذه الحالات صورة حقيقية لهذه العوالم ووصف بديع لموقف الإنسان منها فمثلا إذا قرأنا القصة المنتشرة اليوم بيننا والمعروفة (عجيب وغريب) لرأينا سائر العناصر السابقة ممثلة فيها ؛ فالقصة تلخص فى أن ملكا كان يدعى (كندر) ولد له ابن اسمه (عجيب) وحدث أن هذا الولد صنع ما أغضب عليه والده ، واضطره إلى سجنه فما كان من (عجيب) لما خرج من السجن إلا أن قتل والده وجلس هو على عرشه . وفى إحدى الليالى رأى (عجيب) حلما أزعجه فاستدعى المعبرين والمنجمين فأخبروه أن أخاً له من والده سيقتله وينتقم لوالده منه ، وبعد بحث طويل علم أن إحدى سرارى والده حامل فأراد التخلص منها فأرسلها مع بعض خدمه لإلقائها فى البحر فأشفق الخدم عليها وجاءوا بها إلى غابة وتركوها ، وهناك وضعت غلاما أسمته (غريب) وحدث أن مرت سيارة من العرب فأشفقت عليها وتزوج

أحد أفرادها واسمه (مرداس) من هذه الجارية وأخذها وابنها إلى حيث يقيم ، وقد ولد له منها ابن اسمه (سهيم الليل) كما كانت له من امرأة أخرى ابنة تدعى (مهدية) وكانت آية فى الجمال . وحدث أن عدوا لمرداس هجم يوما على عشيرته أثناء غيابه فابلى (غريب) بلاء حسنا إذ انتصر على العدو واسترد سائر الأموال التى سلبت وعاد بمهدية بعد أن سبيت وهو ينشد قائلا :

أنا المعروف فى يوم المجـــال ... وجن الأرض تفزع من خيالى
ولى سيف إذا هزت يمينى ... تبادرت المنية من شمالى
ولى رمح إذا نظروا إليـــه ... يروا فيه سنانا كالهـــلال
وأدعى بالغريب شجاع قومى ... ولا أخشى إذا قلت رجالى

ويحدث بعد ذلك أن غريبا يغرم بمهدية وتولع هى به ويترامى ذلك الغرام إلى أذنى مرداس فينكر على الاثنين هـذا الحب ويقرر أخيرا الانتقام من غريب ، فيخرج مرداس يوما ما ويكمن لغريب فى الطريق ، وبينما هو فى مكمنه إذ بخصمه القديم أقبل طالبـا الثأر فيقع مرداس ورجاله فى الأسر ، ويسرع (سهيم الليل) إلى غريب ويقص عليه خبر رغبة مرداس وأنه كامن له ليقتله ، ويرجع غريب ويجد عدوه ورجاله معتقلين فيفكهم غريب من الأسر على أن يزوجه مرداس ابنته مهدية . لـكن مرداس يخلف وعده ويتنـكر ثانية لغريب ويفكر فى طريقة يتخلص منه بها فيطالبه ، كمهر لمهدية ، أن يقتل له « غول الجبل » ذلك الغول الذى لا تحمله الخيل لعظم جثته

والذى إذا أراد أن يلاقى عدوه اقتلع شجرة عظيمة وضربه بهـا . لـكن يحدث أن ينتصر غريب عليه وعلى أولاده ، كما دخل غول الجبل وأولاده فى الإسلام ملة إبراهيم الخليل . ولما تم الأمر لغريب علم أن غول الجبل كان قد غنم وأولادة فتاة جميلة جدا تدعى (فخر تاج) وهى كريمة سابور ملك الفرس ، وهنا نظهر فروسية غريب فيقرر إرجاعها إلى أبيها معززة مكرمة ، وتذكر القصة سفر غريب وفخر تاج وحاشيتها ووصول الجميع إلى فارس واستقبال والدها لها ، وحفاوته بغريب ، ورغبة فخر تاج فى الزواج بغريب ، وقبول سابور على أن يقدم غريب رأس غريمه وعدوه (الجرقان) مهرا . هذا ما كان من أمر غريب ، أما مرداس فإنه لمـا علم بالتوفيق الذى صادفه غريب خاف ورحل إلى الـكوفة حيث يملك (عجيب) الذى كان قد أبدى رغبته من قبل فى الزواج بمهدية ، ويسير غريب على رأس جيش من الفرس والعرب لمحاربة (عجيب) . وهنا يظهر عنصر جديد فى القصة وهو عنصر الخادم الأمين (سيار) خادم عجيب الذى استطاع سرقة غريب بعد أن بنجه ، وسيار هذا هو الذى تمـكن فيما بعد من إنقاذ سيده عجيب بعد أن وقع فى يد غريب ، وتدور رحى الحرب بين الأخوين عجيب وغريب وينتصر غريب ويجلس على عرش الـكوفة ، ويهرب عجيب ، ويبحث غريب عن مرداس فيعلم أن (جرقان) قتله وسبى نساءه ، فينتقم غريب من جرقان ويحصل على مهدية . وتستمر القصة فتحدثنا كيف أن عجيباً لما هرب من وجه أخيه قصد إلى اليمن حيث

طلب من ملكها مساعدته لاسترداد ملكه ، وتدور بين الفريقين معارك ينتصر فيها غريب وأخوه « سهيم الليل » ويرى غريب حلماً غريباً فيقرر أن يقوم برحلة وبرفقته سهيم الليل ، وينام الاثنان تحت شجرة فيأتى ماردان عظيمان أحدهما له رأس كلب والآخر له رأس قرد ، وهما كالنخلة ولهما شعر مثل أذناب الخيل ، ومخالب كمخالب السباع . وكان السبب فى ذلك أن ملكا من ملوك الجن اسمه (مرعش) كان له ولد اسمه (صاعق) يحب جارية من الجن اسمها (نجمة) وكان (صاعق) و (نجمة) مجتمعين فى ذلك الوادى وهما فى شكل طائرين . وحدث أن غريباً وأخاه ظناهما طائرين فرمياهما بنشاب فأصابا (صاعقاً) ، فحزنت (نجمة) وخطفت حبيبها وطارت . فلما نظر (مرعش) إلى ولده ورآه فى هذه الحالة غضب غضباً شديدا وأرسل الماردين لإحضار غريب وسهيم الليل . وتستمر القصة فتحدثنا عن وصولهما إلى ملك الجن وتصف هذه الرحلة والصداقة التى قامت بين (مرعش) وغريب ، وكيف أنه أطلعه على بلاده ، وأهداه سيف يافث بن نوح وجوادا طيارا إذا ركبه طار به فى طبقات الجو . وتتوطد العلاقة بين ملك الجان وغريب حتى اعتنق الملك الإسلام فغضب ابن عمه (برقان) فتقوم بين ملكى الجن حرب يبلو فيها غريب بلاء حسنا ، وتنتهى بانتصاره وانتصار (مرعش) . ولا تقف القصة عند هذا النصر بل تحدثنا عن عودة غريب إلى بلاد العراق ثانية وبرفقته الماردان (كيلجان) ،

و (قورجان) ، ويخوض غمار حروب أخرى كثيرة بعضها ضد الإنس وبعضها ضد الجن وبعضها فى بلاد العرب والبعض الآخر فى الهند وغيرها ، وتنتهى بصلب «عجيب» . لـكن يحدث بعد هذا أن ساحرا سحر ماردا وصيره عصفورا ، وتمـكن هذا العصفور من أخذ غريب وإلقائه فى البحر ، وينقذ من الموت إلا أنه اقترف ذنبا آخر فسحرته امرأة وصيرته قردا ثم عفت عنه وأعادته إلى حالته الأولى وتختم القصة بمعركة تدور بينه وبين قائد آخر يدعى « مراد شاه » ظهر فيما بعد أنه ابنه من فخر تاج .

تكوين القصة

حتى عهد قريب كانت القصة فى أوربا كماً مهملا لم يعن بها أديب ، ولم يلتفت إليها مؤرخ ، لذلك ظلت الآداب الأوربية قرونا عديدة محرومة من القصة بعيدة عنها فى الوقت الذى كان فيه الشرق قد سما بها وأوجد فيها المجاميع الكثيرة كمجموعة (بنتشتنترا) فى الهند وألف ليلة وليلة فى العالم الإسلامى ؛ إلى جانب تلك المجاميع التى تركها البابليون الأشوريون وقدماء المصريين . فإذا كان الأمر كذلك فلا غرابة إذن إذا رأينا الشعوب الشرقية خاصة السامية منها أعنى شعوب الجزيرة العربية وبعض أجزاء أفريقيا تستعين بالقصة فى أغراضها الأدبية كما اتخذتها كتبنا الدينية وسيلة من وسائل الاقناع والدعاية .

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد فنحن نعلم أيضا أن العلاقات بين الشرق والغرب لم تكن طوال هذه العصور التاريخية واهية ضعيفة ، فتبادل المنافع وتزاوج الثقافات والاشتباك فى الحروب أدى إلى تلقيح العقلية الأوربية والآداب الغربية بالشىء الكثير من تراث الفكر الشرقى . فقديما أخذ الغرب عنا أيجديتنا ، ومن ثم اعتنق المسيحية ، فانتقلت إليه عن طريقها ثمار العقلية السامية سواء

كانت هذه الثمار وثنية أو إسرائيلية أو مسيحية . ولست أقصد من هذا أن هذه هى المرة الأولى التى غزت فيها العقلية السامية الغرب ، فنحن نعلم أن البابليين الأشوريين وقدماء المصريين كثيرا ما صدروا بعض الحاصلات الثقافية إلى اليونان والرومان حتى ما كان منها متصلا بالدين والعقائد . لكن هذه العلاقات الثقافية لم تكن فى الوفرة والغزارة التى حدثت عن طريق الغزو الدينى المسيحى فالكتاب المقدس ، خاصة ذلك الجزء الخاص باليهود ، غنى جدا بالشعر والنثر فيه فى التشريع الخروج ولاويون والعدد والتثنية ، وفيه فى التاريخ التكوين ويشوع والقضاة وصموئيل والملوك وأخبار الأيام وعزرا ونحميا ، وفيه للقصة يونس وروث واستير ، وفيه فى الحكمة الأمثال وأيوب والجامعة ، وفيه فى النبوءات أشعيا وأرميا وحزقيال وصغار الأنبياء ودانيال ، وفيه فى الأغانى المزامير ونشيد الأناشيد والمراثى . فهو والحالة هذه سجل فاخر غنى للعقلية السامية وضع فى عصر يبلغ من عمر الدهر نحو ألف عام .

انتقلت هذه الثروة العقلية إلى أوربا فبعثتها بعثا جديدا كما انتقلت إليها فى العصور الوسطى عن طريق السلم والحرب الحضارة الإسلامية بفنونها وآدابها ، ووجدت القصة الشرقية طريقها إلى أختها الغربية فاستغلها القصاص والأدباء والمصورون استغلالا عظيما كما أخذ جماعة من علماء الغرب يعنون بجمع هذه القصص وتدوينها ؛ فظهرت فى إيطاليا مثلا مجموعة (سترابارولا) (١٥٥٠ — ١٥٥٣)

و (بازيل) (١٦٣٧) ، وفى فرنسا (برولت) (١٦٩٧) و (جرفين دلنوى) (١٦٩٨) ، وفى ألمانيا (ميزويس) (١٧٨٢ — ١٧٨٦) والاخوان (جريمه) (١٨١٢ — ١٨١٤) و (١٨٥٦) ، وفى جوتلند (كريستنسن) ، وفى روسيا (أفاناسيو) ، وصقلية (بيترا) والدينمارك (جروندفيج) ، والنرويج (اسبيورنسون) .

ولم يقف الأمر عند هذا بل نجد أستاذا من أساتذة « فيمر » وهو (ميزويس) يضع القصة العالمية (شفيفيتش) التى ترجمت إلى سائر اللغات الغربية ، وكذلك قصة (شفانيونج فراو) . وغير (ميزويس) نجد (جوته) شاعر ألمانيا الخالد يوجه عناية فائقة للقصة فنجدها فى « آلام فرتر » و (جوتز فون برلشينجن) . ولم يكن هذا الشاعر مرددا فى قصصه صدى القصص القديمة التى عرفها عن أمه بل خلق أخرى فيها الكثير من الدعابة والسخرية . وإذا ذكرنا (جوته) و (ميزويس) وجب علينا ألا نهمل (لودفيج تيك) فقد نحا بالقصة نحوا جديدا ؛ إذ مزج بين القصص المختلفة حتى ولو كانت تنسب لشعوب مختلفة ليبرز العناصر المشتركة ويقوى مواطن الضعف التى قد تبدو فى قصة من القصص .

واختلف العلماء أيضا حول الوطن الأصلى للقصة كما اختلفوا حول مصدرها ؛ فالعالم السنسكريتى (تيودور بينفى) الذى نشر عام ١٨٥٩ مجموعة القصص الهندية المعروفة باسم (بنتشتنترا) يقرر أن الهند هى المهد الأصلى للقصة وذلك لحاجة الديانة البوذية الشديدة

إليها كوسيلة من وسائل تنمية الخيال وتهذيبه . وقد ظلت فكرة هذا العالم سائدة زمنا طويلا حتى ظهر أمثال (س . ب . تيلور) و (أندرو لنج) وغيرهما من العلماء الذين عارضوا فكرة (بينفى) وقاوموها . فالبحاثة (تيلور) مثلا قام بدراسة اللغات القديمة ، والعادات البشرية المختلفة وقد انتهى به بحثه إلى أن سائر البشر يشتركون فى كثير من مظاهر العقائد الدينية ، فهم يؤمنون بالأرواح الخيرة والأرواح الشريرة كما يؤمنون باللعنة والبركة ، الصحة والمرض ، الفناء والبعث ، اليقظة والحلم ، والقوى المختلفة الكامنة فى الحيوان والنبات والجماد . فهذه العقائد وتلك التقاليد نجدها عند الشعوب البدائية وتلك التى بلغت من الثقافة حظا كبيرا ، عند سكان المناطق الاستوائية والأقاليم القطبية ، فهى إذن ملك البشر وإن اختلف لونه وتبلبلت ألسنته . فإذا كان الأمر كذلك والقصة كما نعلم هى المرآة التى تنعكس عليها النفس البشرية بما ورثته من تقاليد العصور وعقائد الدهور أصبح من العسير القول إن للقصة وطنا بعينه كما ذهب (بينفى) . وكل ما فى الأمر هو أن هذه العوامل النفسية التى تتفق حينا وتختلف حيناً آخر تنتج نوعا من القصص تجمع بينه جامعة النفسية البشرية ، وتفرق بينه العوامل الإقليمية المحلية . ومثل القصة فى هذه الظاهرة مثل المناخ فهو واحد فى قطرين أو أكثر طالما يخضع القطران أو الأقطار لعوامل جغرافية واحدة أو متشابهة . لكن إذا تعددت التضاريس وتنوعت اختلفت

الطقوس وتشعبت كذلك الحال مع الفاكهة فهى هى حيث تتوفر التربة والهواء والشمس والماء . وزعيم هذا الاتجاه الجديد الذى أنكر على (بينفى) قوله إن للقصة وطنا بعينه وإن هذا الوطن هو بلاد الهند هو العالم (بديه) الذى يتحدث عن تعدد أوطان القصة .

وغير نظريتى (بينفى) و (بديه) نجد العالم (جريمه) يأتى برأى جديد وهو أن قصصنا الشعبى عبارة فى الواقع عن بقايا الأساطير والملاحم التى سادت فى العصور البعيدة جدا ، وإن كانت قد أهملتها الطبقات الخاصة إلا أن العامة احتفظت بها بعد أن كيفتها بيئتها الجديدة . والواقع أن هذه النظريات مجتمعة تتعاون معا فى سبيل كشف القناع عن القصة وتكوينها .

من الأساطير السامية

عالجت فيما سبق القصة عامه وتحدثت عن مصدرها وتكوينها وماهيتها فى الآداب عامة . والآن أنتقل قبل أن أعرض لقصصنا العربى إلى الحديث عن الأساطير السامية عامة للعلاقة القوية بينها وبين قصصنا سواء ذلك النوع الرفيع الذى طالما تحدثت عنه كتبنا الدينية أو هذا النوع الشعبى الذى أفردت له هذا الكتاب .

لا شك فى أن طبيعة الحديث عن الأساطير السامية تتطلب منا قبل كل شىء أن نتعرف إلى هذه الأسرة ووطنها ، والشعوب التى تنطوى تحتها وطبيعتها ، ومدلول اللفظ ومصدر التسمية . سامى نسبة إلى سام أحد أبناء نوح الثلاثة ، والساميون هم الشعوب التى انحدرت منه أو من نسله . وهم الذين قطنوا ويقطنون الجزيرة العربية والقسم الأكبر من القارة الإفريقية إلى يومنا هذا ، والتاريخ يحدثنا أن من بين تلك الشعوب العربية أيما مكنتها بيئتها من إقامة حضارة وخلق ثقافة بواتها فى العصور التاريخية الأولى مكانا عليا ، ومن تلك الحضارات ، البابلية الأشورية ، والمعينية السبائية ، والآرامية ، والكنعانية ، وغيرها . وقد استطاع رجال اللغات السامية كشف القناع عنها بعد أن أنطقوا الأحجار ، وفهموا لغة الخرائب والآثار ،

فأزالوا عنها الحجب ، وأماطوا عن ثغورها اللثم ، فتبدت لنا فى صورتها الطبيعية على خير ما تبدو حضارة أرسلت فى الألف الثانى قبل الميلاد أنوارها إلى اليونان ومن جاورهم من الشعوب الأخرى . فحضارات هذا شأنها حضارات أنتجتها عقليات أمم اختص الله أبناءها بالنبوة ، ومنهم من حظاه بالبنوة ، وأنزل على ألسنتنا السامية دياناته السماوية الإسرائيلية ، والمسيحية ، والإسلام جديرة بأن نجد فيها من الأساطير ما يربط بين ماضينا وحاضرنا لأن صلة الشعب بأساطيره صلة جسدية روحية أقول جسدية لأنها وليدة بيئتنا التى نمت فيها أجسادنا وترعرعت ، والإنسان كما قيل بحق « ابن بيئته » أما الصلة الروحية فلكونها بنت خيالنا وصورة لمعتقداتنا ووليدة نظرنا إلى الحياة وتقديرنا للأمور وحظنا من المثل . لذلك إذا كتبت اليوم فى الأساطير السامية فإنما أعرض مرآة تنكسر عليها أشعة تراثنا فى فجر التاريخ فتشعها ثانية فنراها فى دياناتنا الوثنية والسماوية . وأساطيرنا بالرغم من تنوعها تدور حول فكرة واحدة وهى إمكان السمو بالإنسان وإبلاغه مرتبة الآلهة فيحيا الحياة الأبدية بعد أن كتب عليه الموت وحرم نعمة الخلود . ولذلك كانت بطولة أساطيرنا وملاحمنا غير قاصرة على الآلهة ، إذ شاركهم فيها نفر من بنى البشر الذين بلغوا أو كادوا يبلغون مرتبة الآلهة ، فانتقلوا من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية حيث يحيون حياة الأطهار فى جزيرة الأبرار . ولعل أقدم شعب من شعوب الجزيرة العربية نستطيع أن نكتب

اليوم أساطيره كتابة الثقاه هو الشعب البابلى الأشورى ، فأساطيره ترجع إلى الفترة الواقعة بين الألف الرابع والثانى قبل الميلاد وأقدمها هى تلك التى عرضت للخلق والتكوين فأجادت وقدمت لنا صورة تكاد تتفق تماماً مع تلك التى وردت فيما بعد فى كتبنا المقدسة . أقول تكاد ، وذلك لأن الأسطورة حرصت على إظهار بعض العناصر التى لا نجدها فى التوراة أو القرآن الكريم ، وهذا التفصيل يلقى ضوءا قويا على عناصر الخلق وتكوينها . فأسطورة التكوين البابلية التى كانت تغنى فى اليوم الرابع من عيد رأس السنة تقول : إنه فى البدء قبل خلق السموات والأرض كان عنصر الحياة موجودا ، وهو عبارة عن مزيج من ذكورة وأنوثة ، وكان عنصر الذكورة يتجلى فى الماء العذب ويسمى (ابشو) ، والأنوثة فى الماء الملح ، وتسمى (تيامة) ، فلما تم المزج ولد (مومو) وهو عبارة عن « الكلمة » ، وعن هذا الثالوث المكون من الأب والأم والابن أو «الكلمة» نشأ المذكر (لكسمبو) والأنثى (لكسامو) ، وعنهما نشأ (انشار) أى العالم العلوى ، و(كيشار) أى العالم السفلى . ومن ثم نجد ثالوثا آخر من (انو) إلٰه السماء و (والليل) إلٰه الأرض و (ايا) إلٰه الحكمة والمياه . وهم الذين يحكمون السماوات والأرض والمياه ، فنرى هنا ثلاثة عناصر من عناصر التكوين أو الوجود التى عرضت لها كتبنا السماوية وعبر عنها القرآن الكريم أحسن تعبير وأقصد بهذه العناصر (الماء) وفكرة (الزوجية) و(الكلمة) .

ثم تذهب الأسطورة بعيدا فتحدثنا عن نزاع قام بين كبير الآلهة (ابشو) وصغارهم ، ويتطور هذا النزاع إلى حرب ينتصر فيها (مردوك) على (تيامة) التى جمعت أعوانها وأرادت الثأر لـ (ابشو) الذى قتله (ايا) ، وبعد أن تم النصر لمردوك فكر فى القيام بعمل عظيم ، فعاد إلى جثة (تيامة) وشطرها شطرين صنع من أحدهما السماء ومن الآخر خلق الأرض . وبعد أن تم له ذلك قسم العام إلى اثنى عشر شهرا ، وأخذ فى خلق الأجرام السماوية والنباتات والحيوانات . ثم توج عمله بخلق الإنسان الأول من الطين والدم الذى سال منه عندما قبض عليه فى العالم السفلى وقضى الآلهة بإعدامه فسيق إلى جبل ومعه مجرم ونفذ فى الاثنين حكم الإعدام إلا أن إلهة جاءت وغسلت قلبه ، وفارقت روحه الحياة وظلت جثته فوق الجبل تحت أعين الحراس مدة ثم دفنت فى قبر ، وبعد مضى عدة أيام جاءت امرأة تبحث عنه فلم تجده وعلمت أنه بعث ثانية .

هذه هى خلاصة موجزة لأسطورة التكوين ، والآن أنتقل إلى أسطورة البطل (جلجمش) التى تعتبر أشهر أسطورة عرفتها الآداب السامية . والذى حدث أن هذه الأسطورة لاقت فى الألف الثانى قبل الميلاد رواجا عظيما لا فى الآداب السامية فحسب بل فى عالم الأساطير الأجنبية أيضا ؛ فترجمت إلى لغات متعددة ، وعثر على نصوصها فى دار محفوظات الدولة الحيثية ، وفى لغات أخرى من لغات آسيا الصغرى . ولعل أكثر الآداب تأثرا بها هى العبرية واليونانية .

وموضوع هذه الأسطورة يدور حول محاولة (جلجمش) الحصول على الحياة الخالدة وبلوغ مرتبة الآلهة . ونستطيع أن نقسم أسطورته إلى ثلاثة أقسام :

الأول — يبين لنا كيف التقى (جلجمش) بـ (انجيدو) وأصبحا صديقين .

الثانى — يحدثنا عن مغامرات الاثنين حتى موت (انجيدو) .

الثالث — محاولة (جلجمش) بلوغ الحياة الخالدة وأسطورة الطوفان

فبعد مقدمة كتلك التى نجدها فى الأوديسا تعدد فيها أعمال (جلجمش) وبطولاته نجد أنفسنا فى مدينة (اوروك) (الان ورقا) التى يحكمها البطل جلجمش الذى ثلثاه إلهى وثلثه بشرى ، والذى كلف شعبه يوما ما بناء سور المدينة ومعبدها . فشق هذا العمل على السكان فتذمروا ولجأوا إلى الآلهة يرجون رفع الظلم عنهم ، فقرر الآلهة خلق كائن يشبه جلجمش قوة لينافسه فى سلطانه ، ويثنيه عن إتمام العمل الذى سخر شعبه فيه . أما هذا الشخص الذى خلقه الآلهة فاسمه (انجيدو) وكان جلده مكسوا بالشعر ، وكان يحيا حياة الفطرة والسذاجة ، فيرعى الحشائش مع الغزلان ، ويشرب حيث تشرب البهائم . فقامت بينه وبين تلك الحيوانات صداقة ومودة حتى إنه كان يزود عنها الصياد إذا هم باقتناصها . فحنق الصياد عليه وأراد الإيقاع به وفكر ثم فكر وأخيرا قر قراره أن يذهب إلى (اوروك)

ويتفق مع عاهر من عاهرات المدينة على معاونته ، فطاوعته وذهبت معه حيث يقيم (انجيدو) والتقت به وراودته عن نفسه وأقامت معه ستة أيام وسبع ليالٍ لاحظ بعدها أن الحيوانات نفرت منه . واقترحت العاهر أن يترك حياة البرارى والمراعى ويعود معها إلى (اوروك) . تبعها (انجيدو) بعد أن علمته كيف يأكل ، وكيف يشرب ، وكيف يلبس ، وكيف يتطيب . دخل (انجيدو) المدينة واتفق أن (اوروك) كانت فى ذلك اليوم لابسة حلة العيد . وبينما كان (جلجمش) يهم بدخول المعبد إذ بـ (انجيدو) يعترضه ويقوم بين البطلين صراع عنيف ينتهى بانتصار (جلجمش) الذى مد يده وصافح خصمه . ونشأت بين الاثنين صداقة حميمة ، ولم يفرق بينهما إلا الموت . وهنا ينتهى القسم الأول بعد أن نقرأ وصفا جميلا حول رحلة (انجيدو) إلى العالم الآخر .

أما القسم الثانى فيتحدث عن مخاطرات الصديقين فى غابات الأرز الجميلة حيث يسكن الجبار (خومبابا) الذى صرعاه كما يصف لنا غرام الإلهة (عشترت) بجلجمش لبطولته واحتقار جلجمش لها ، والنزاع الذى قام بينهما وانتهى بانتصاره عليها . لكن كل هذه الانتصارات لم تحل دون تسرب الحزن إلى نفس جلجمش لوفاة صديقه (انجيدو) هذه الوفاة التى دفعت جلجمش إلى التفكير فى النجاة من هذا الموت الذى خطف صديقه كما شق عليه أيضا أن ينتقل بعد حين إلى عالم الأموات الذى وصفته روح (انجيدو)

وصفا مخيفا ، وهنا تنتقل بنا الأسطورة إلى القسم الثالث الذى يصف محاولة جلجمش بلوغ مرتبة الآلهة أو الخلود ، فنراه يفكر فى جده (أوتنابيشتم) الذى كان آدميا ومن ثم وفق وصار إلـهاً . وكان هو الوحيد الذى نجا من الطوفان وهو يعيش فى جزيرة ملأى بالحدائق الغناء تعرف بجزيرة الأبرار . يصمم جلجمش على الذهاب إلى جده يسأله الطريق الذى يجب عليه أن يسلكه ليبلغ غرضه ، فتحدثنا الأسطورة أنه اخترق كثيرا من الصحارى والقفار ، والتقى بالأسد وغيرها من الوحوش الضارية التى نازلها جلجمش وانتصر عليها ، ومن ثم بلغ جبال (مارس) حيث تلتقى السماء بالعالم السفلى . ويقوم عند الملتقى اثنان من البشر جسدهما جسد عقرب ، ومن الغريب أن هذين الكائنين رحبا بمقدمه وزوداه بكثير من النصائح الثمينة التى تساعده على بلوغ جزيرة الأبرار . وبعد رحلة طويلة اخترق فيها بلادا حالكة الظلام ، ومر بجنات ثمارها أحجار كريمة ، وعبر بحرا سام ماؤه ، وصل إلى حيث يقيم جده وقص عليه قصته ورجاه أن يحدثه عن كيفية نجاته من الموت . لكن جده يرفض فى أول الأمر ويخبره أن الموت فرض على كل كائن على وجه الأرض ، فيقوم جدال بين الاثنين حول صحة هذا الرأى محتجا جلجمش على بطلانه بجده الذى كان فى الأصل بشرا ومن ثم صار إلـهاً . وبعد جدال عنيف نجد (اوتنابيشتم) يقص على حفيده القصة الآتية التى كانت سببا فى بلوغه مرتبة الآلهة .

قبل خمسة آلاف سنة عقد الآلهة البابليون اجتماعا قرروا فيه عقوبة سكان مدينة (شوروباك) التى عصى أهلها آلهتهم وأغضبوهم . وكانت العقوبة عبارة عن طوفان يرسله الآلهة فيقضى على الحرث والنسل . لكن الاله (أيا) إله الحكمة ، وصديق البشر يعلم أن من بين سكان المدينة رجلا حكيما عرف برجاحة العقل وعمل الخير وهو (أوتنابيشتم) ، وليس من العدل أن يلاقى هذا الرجل حتفه مع الكفرة الفجار ، لذلك تألم (أيا) وأخذ يسعى لإنقاذ هذا الحكيم المتدين لكن كيف السبيل إلى إنقاذه وقوانين الآلهة لا تبيح لأحد منهم إفشاء أسرار جلساتهم . ويفكر (ايا) ويتدبر ، وينتهى به تفكيره إلى الذهاب حيث ينام (اوتنابيشتم) فى كوخه المصنوع من القنا فيتحدث (ايا) إلى حائط الكوخ وللحيطان كما يقال آذان ، فيسمع (اوتنابيشتم) حديث (ايا) ويعلم كل ما جرى فى اجتماع الآلهة دون أن يتهم (ايا) بتهمة إفشاء أسرار الآلهة . ويذهب (ايا) بعيدا فينصح (اوتنابيشتم) بما يجب عليه عمله ، وهو أن يقوم لساعته ويصنع لنفسه فلكا يعصمه ويعصم أهله وعشيرته ونفرا من العمال والصناع وبعض الحيوانات المنزلية ، وذهبه وفضته . وبعد أن تمت الاستعدادات أصدر الإله (شمش) أوامره إلى السحب فتتجمع فى السماء ويرعد الرعد ويبرق البرق وتهطل السماء مدرارا ، فيدخل (اوتنابيشتم) ومن معه الفلك وتجرى السفينة ويعطى إله الشمس الإشارة لآلهة الطوفان . وهنا نرى الخيال العربى

البابلى غنيا خصبا إذ يصور لنا إلـه البرق والرعد (رومان) ممتطيا صهوة الرعد ، وخلفه حاشيته ، وأمامـه رسولان يستوى عندهما السهل والوعر ينزعان سوارى السفن ويطرحان كل ما يعترضهما أرضا وخلفهما آلهة العـالم السفلى يلوحون بمشاعلهم فيبرق البرق ويرعد الرعـد ويهطل المطر وركب (رومان) يسير . والآن نرى الخوف والهلع والـكرب والفزع وشبح الموت يخيم على سائر البشر ، لـكن شاعرنا العربى القديم لا يقف خياله عند هذا الحد ، بل نراه يسلك ناحية أخرى تترك فى النفس أثراً أشد وأقوى فهو يحلق فى السموات ويترك الأرض فيصور لنا الآلهة وقد استولى عليهم الذعر فيتصايحون ويتطايرون وتضيق بهم السماء الدنيا فيلتمسون إلى العليا سبيلا ، والرعد لم يقف رعده ، والبرق لم ينته وميضه ، والسماء لم تحبس ماءها . لـكن بينما نرى هذه الصورة فى ركن من أركان السماء إذ بنا نبصر فى ناحية أخرى من نواحيها آلهة الطوفان فرحين مغتبطين لأنهم أطلقوا عوامل التخريب من أوكارها . وفى اليوم السابع والسابع فقط أقلعت السماء وابتلعت الأرض الماء ، واستوت الفلك على جبل (نيصير) حيث بقيت عليه سبعة أيام ولم يجرؤ (أوتنابيشتم) على الخروج لأن الـكوة التى فى الفلك لم تـكن من السعة بحيث يستطيع بواسطتها أن يتحقق من جفاف الأرض ، فلجأ إلى حيلة من حيل الملاحين فى العصور الأولى التى كانوا يتبعونها

لمعرفة اليابسة ، فأطلق الطير ، والطير بغريزته يعم شطار الأرض فيهتدى بواسطته الملاح التائه . أرسل (أوتنابيشتم) الحمامة فعادت ، والسنونو فرجعت ، أما الغراب فلم يعد ، ففتح الباب وهبط ومن معه ، وقدموا القرابين شكرا للآلهة الذين تساقطوا عليها تساقط الذباب .

نجا (أوتنا بيشتم) ومن معه فسر (أيا) وغضب (الليل) الذى كان يسره هلاك الجميع فيدور بين الآلهين حوار لطيف جميل ينتصر فيه (أيا) . وذلك لأن نجاة هؤلاء انتصار للعدالة الإلهية ، فالبرىء لن يؤخذ بذنب المسىء . نجا (أوتنابيشتم) فأصلح الخطأ الذى وقع فيه (الليل) وخدع به الآلهة وأصبح الآن من الممكن أن تعمر الأرض ثانية من نسل الناجين ، وتعود إليها حضارتها بفضل نجاة العمال والصناع . ولا شك فى أن عمار الأرض وقيام الحضارة وبعث العبادة وتقديم القرابين وما إليها من الأمور التى يفرح لها الآلهة لذلك اعترف (الليل) بخطأه وانتصر عليه (أيا) وأثيب (أوتنابيشتم) وزوجه ورفعا إلى مرتبة الآلهة .

وما كاد يفرغ (أوتنابيشتم) من سرد قصته على (جلجمش) حتى ألح عليه الأخير أن يخبره عن طريقة بلوغ الخلود ، وبعد لأى ما أخبره أن فى قاع البحر نبتة ترجع الشيخ صبيا فإن حصل عليها وأكلها بلغ مراده . فغاص (جلجمش) عليها وأخرجها ، وعوضا عن أن يأكلها أراد أن يحملها إلى مدينته ليطعم منها سائر أفراد

شعبه . لـكن حدث أن نزل يغتسل فى البحر فجاءت حية وأكلت النبتة فبلغت هى الحياة الأبدية . وذلك بإلقائها من وقت لآخر جلدها والاستعاضة عنه بجلد آخر يكسبها الشباب ، ويعيد إليها قوتها . لذلك اتخذها الأطباء العرب البابليون شعارا لهم وعنهم انتقلت إلى سائر أنحاء العالم ، وما زالت حتى يومنا هذا رمز الطب والأطباء .

أما (جلجمش) فقد عاد إلى قومه حزينا كئيبا .

أدرك (جلجمش) أن الموت لا بد لاحقه ، وأدرك أيضا أن الحياة فانية والموت آت ، وعرف أن الحياة كفاح وجهاد وكل ما فى الوجود من قوة لن يؤخر الأجل إذا حانت ساعته ، ولـكن يقين الإنسان بالموت يجب ألا يثنيه عن الجرى وراء الـكمال .

قصة برج بابل

أو قصة اللغة يدل اسمها على وطنها أو على الوطن الذى يعتقد أنها نشأت فيه . فى الإصحاح الحادى عشر من السفر الأول من أسفار التوراة نقرأ رأيا خاصا باللغة وأصلها لا من حيث هى توقيف ووحى أواصطلاح وتواطؤ ، بل من حيث إنها ترجع إلى أصل واحد أو أصول متعددة . فالتوراة تقرر أن لغات العالم ترجع إلى لغة واحدة وهى اللغة الأم ، ثم تقص علينا قصة جميلة حول السبب الذى أدى إلى هذا التنوع فى الأجهزة الصوتية ، والتعدد فى اللغات . فهى تحدثنا عن قصة من القصص السامى القديم الذى رددت صداه الآداب العالمية والديانات السماوية أعنى قصة (برج بابل) فهى كما يدل عليها اسمها ليست عبرية بل بابلية ، وإن كانت التوراة قد صاغتها فى أسلوب يختلف بعض الاختلاف عن الأصل البابلى ، فهذا البرج الذى كان أول الأمر من مستلزمات المدينة لحراستها والدفاع عنها ، والذى أصبح فيما بعد مقترنا بالمعابد اقتران المآذن اليوم بالمساجد ، وأبراج النواقيس بالكنائس أصبح فى التوراة مظهرا من مظاهر اتحاد الشعوب وجمع كلمتها . لكن هذا التآلف الذى قد يؤدى إلى شىء

من الغطرسة والكبرياء أغضب الله فنزل من السماء وبلبل ألسنة القوم فوقف العمل وتشتتت الشعوب . وفى عصر السبى البابلى (القرن السادس ق . م .) نجد اليهود يحدثوننا عن القصة حديثا آخر يختلف بعض الاختلاف عما ورد فى التوراة ، ويتفق مع مانعرفه فى الإسرائيليات ، وقصص الأنبياء ، وبعض كتب التفسير . لكن بينما القصة اليهودية تدعى أن شعب الله هو الشعب العبرى لعدم اشتراك جدهم (عبر) فى بناء البرج إذ بالمصادر العربية تقرر أن العربية هى لسان أهل الجنة ؛ فالسيوطى يحدثنا فى المجلد الأول من مزهره : وأخرج ابن عساكر فى التاريخ بسند رواه عن أنس ابن مالك موقوفا قال : لما حشر الله الخلائق إلى بابل بعث إليهم ريحا فاجتمعوا ينظرون لماذا حشروا له فنادى منادٍ : من جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره واقتصد البيت الحرام بوجهه فله كلام أهل السماء فقال يعرب بن قحطان فقيل له : يا يعرب بن قحطان بن هود أنت هو ، فكان أول من تكلم بالعربية ، فلم يزل المنادى ينادى من فعل كذا وكذا فله كذا وكذا حتى افترقوا على اثنين وسبعين لسانا وانقطع الصوت وتبلبلت الألسن فسميت بابل وكان اللسان يومئذ بابليا .

ولم يقف أثر هذه القصة عند هذا الحد بل نجدها تذهب بعيدا فتخرج لفظ — بابل — من معناه الأصلى (باب الُ) أى (باب الله) إلى المعانى المتداولة الآن فى سائر اللغات السامية الحامية ،

والهندية الأوربية ؛ ففى الإنجليزية مثلا (بابل Babel) يدل على معنى (بلبل Babbele) و : بابل : فى الألمانية . واللفظان يستعملان فيما تستعمل فيه كلمة — بلبل — فى العربية

وليست الشعوب السامية هى الوحيدة التى انفردت دون شعوب العالم بالاعتقاد فى أن لغات البشر ترجع إلى لغة واحدة أصلية ، فالقصص الصينى يحدثنا أنه كان يحكم تلك البلاد قيصر يدعى (شين هوانج) خضع لسلطانه الإنسان والحيوان والنبات ، وحتى المظاهر الكونية المختلفة من مطر وريح ، ونور وظلام ، وسكون وحركة ، كما أنه كان يتصف بكل الفضائل وإرجاع سائر اللغات إلى أصل واحد ، وظلت البلاد فى رغد من العيش حتى تبلبلت الألسنة فتغيرت الأحوال واضطربت الأمور . وفى الهند نجد نفس الفكرة تتجلى لنا فى صورة شجرة تين سمها (فاتا) كانت تظل العالم أجمع عندما كان يتكلم لغة واحدة وهى لغة الله . وحدث أن دخل العجب نفوس القوم ففكروا فى استخدام الشجرة التى بلغت قمتها كبد السماء وسيلة للوصول إلى مكان الآلهة التى غضبت وحطمت الشجرة وتناثرت أغصانها ، فتفرقت العادات ، وتنوعت الأخلاق ، وتبلبلت الألسن . أما هذه الأغصان التى كان يبلغ عددها واحدا وعشرين غصنا فقد غرست من جديد وتكونت منها الأسرات اللغوية العالمية .

لم يقف اعتقاد العالم القديم فى اللغات البشرية عند هذا الحد أعنى أنها ترجع جميعها إلى لغة أصلية واحدة وهى اللغة الأم ، بل نظر

إلى اللغة نظرة تقديس وإجلال . فقدماء المصريين اعتقدوا أن للكلمة ربا خاصا وهو (توت) كما آمن اليونان بالإله (هرميس) ، والرومان (بيانوس) ، واعتقد البابليون فى (أيا) ، والهنود فى (برهما) ، والجرمان فى (أودين) كما أن بعض الشعوب الأخرى كالهنود الحمر بالمكسيك مثلا رأوا أن اللغة وصلت إلى البشر عن طريق طائر خاص ، فاللغة فى عقيدة تلك الشعوب توقيف ووحى .

لكن فكرة الإنسان فى آلهته تطورت وتغيرت مع مرور الزمن كما أندثرت ثقافات وقامت على أنقاضها أخرى تختلف عنها فى نظرها إلى الكون وتقديرها للوجود . وأخذ يفقد الإنسان تدريجيا إيمانه بتعدد الآلهة والبحث عنهم خارجه ، وأصبح يميل إلى الكشف عن إلهه فى داخله ، وقد تجلت لنا هذه الفكرة واضحة فى المسيحية عندما نسبت إلى عيسى عليه السلام أنه قال : أنا الكلمة والكلمة أنا : فهذا التطور الفكرى الذى أدى إلى القول بأن اللغة ليست توقيفا ولا وحيا سبقه تطور آخر فى الفنون والآداب تجلى لنا فى لغة الترانيم الدينية الرفيعة ، ولغة كبار الكتاب والشعراء ؛ ففى تلك النصوص نقرأ لغة تختلف عن لغة العامة اختلافا كبيرا ، ولو كانت اللغة توقيفا لكانت واحدة ، هذا إلى جانب كثرة التوارد والترادف ، والتضاد والشواذ ، وما إليها من الظواهر اللغوية التى تشوه جمال اللغة وتجعلنا ننظر إليها نظرة أقل من نظرنا إلى أى تمثال من صنع الإنسان ، ونعتقد فى أنها اصطلاح وتواطؤ . وقد رأى هذا الرأى

قديما كثير من الفلاسفة وعلى رأسهم أرسطو ، كما ناصر الفكرة الأولى آخرون ومن بينهم أفلاطون . وقد استمر النزاع قائما بين المدرستين حتى العصور الوسطى إذ انتصرت آراء أرسطو وأصبحت هى الأساس الذى شيدت عليه الآراء المتأخرة حول اللغة وأصولها .

لكن نظرية برج بابل التى رددت صداها أساطير الهند وقصص الصين ، والتى كانت العامل المحرك إلى إيجاد تلك الحركة الفكرية حول اللغة وأصلها اتجهت بالفكر الإنسانى منذ القدم اتجاها آخر قصد به التثبت من صحة النظرية أولا ومعرفة زمن ووطن اللغة الأصلية ثانيا . فهيرودوت يحدثنا أن (بسماتيك) أراد الوصول إلى معرفة اللغة الأم أو بمعنى آخر أقدم شعب على الأرض ، فأمر بإحضار وليدين ووكل أمر العناية بهما إلى أحد رعيانه ، وحذره من أن ينطق أمامهما بمقطع واحد كما أمر بوضع الوليدين فى مكان بعيد لا يصل إليه صوت بشر . وكان هذا الراعى يزور الطفلين فى أوقات مخصوصة ومعه ماعز لإرضاعهما . وبعد مرور عامين دخل عليهما الراعى فوجدهما يركضان صائحين (بيكوس) ، فأخبر الراعى (بسماتيك) الذى أمر بإحضار العلماء إليه وعرض عليهم هذا اللفظ فظهر أن مدلوله (خبز) فى لغة أحد شعوب آسيا الصغرى المعروف بالشعب الفريجى ، فاستدل من ذلك على أن هذا الشعب أقدم الشعوب كما أن لغته أقدم اللغات . ونفس هذه التجربة التى قام بها فرعون مصر (بسماتيك) نجدها تتكرر فى العصور الوسطى .

فالتاريخ يحدثنا أن فريدريش الثانى حاول القيام بهذه التجربة فلم يوفق ، لكن هذه المحاولات وإن كانت قد أخفقت إلا أنها كانت السبب فى خلق علم جديد ألا وهو علم مقارنة اللغات الذى استخدم كوسيلة من وسائل البحث عن اللغة الأصلية . ففى القرن الرابع الميلادى نجد (هيرونيموس[1]) يشير إلى القرابة بين العربية والعبرية والفينيقية ، وتبعه علماء آخرون منهم الغربى ومنهم الشرقى ، وقد عاونوا جميعا فى بناء هذا الصرح العظيم الذى تسلمه (ليبنتز) فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ودعمه . وذلك لأنه كان يعتقد فى اطراد حياة اللغة الأصلية وانتشارها بين لغات كثيرة ، فجمع من تلك اللغات المواد التى كان يرى ضرورة الاستعانة بها لبناء هيكل اللغة الأصلية ، وعاونه على تحقيق غايته اتصاله الوثيق برحالة الصين الإيطالى (كلوديو جريمالدى) وملك بولندة (يوحنا سوبيسكى) وقيصرة روسيا (كترين الثانية) . لكن ما كاد يولد القرن التاسع عشر حتى رأينا العلماء ينقسمون إلى فريقين فريق يسخف نظرية برج بابل وكان على رأسه (فولتير) وآخر يعارضه بزعامة (فلهلم

---

(١) ولد فى دلماسيا فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى من أسرة مسيحية ودرس فى روما النحو والبلاغة ومن ثم اعتنق عام ٣٦٦ المسيحية ورحل بعد ذلك إلى الشرق حيث أقام فى أنطاكية ، وتعلم بعض اللغات الشرقية . وبعد أن أقام مدة فى الشرق رجع إلى روما وعاد ثانية مع صديقته بولا وابنتها وأقاموا فى بيت لحم حيث أسسوا بعض الأديرة التى كانت تحت إشرافه ، وقد اشتهر بفساد الخلق والكذب .

فون هومبلدت) ، ومن حسن حظ الفريق الأخير أن القرن التاسع عشر كان عصر الاكتشافات اللغوية الخطيرة ، فرموز الهيروغليفية قد حلت ، وطلاسم الأكدية رفع القناع عنها ، وتسابقت بعوث الجامعات الأوربية والأمريكية إلى الشرق ، ونبشت أرضه فازداد تعمق اللغويين فى السنسكريتية واستطاع العلماء أن يرسموا خطا كروكيا يبين لنا مجموعة اللغات التى عرفت فيما بعد بالهندية الأوربية . ووفق (فرنس بوب) عام ١٨١٦ عندما نشر كتابه الذى درس فيه صرف اللغة السنسكريتية مقارنا بصرف اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والألمانية ، وقد أقام بكتابه هذا الدليل العلمى على قرابة هذه اللغات ، ثم تلت هذه المجموعة مجموعة أخرى من اللغات الكلتية والصقلبية والألبانية والأرمنية . وهكذا أصبحنا نرى أنفسنا فى القرن التاسع عشر أمام مجموعة من الشعوب تمتد من الهند إلى شمال أرلنده تربط بينها رابطة الجنس وتوحد بينها اللغات ، وكانت نتيجة هذا الكشف اللغوى العظيم أن أقبل تلاميذ (فون هومبلدت) على بقية اللغات وأخذ كل فريق يعنى بلغتين أو أكثر حتى نجحوا أخيرا فى مد خطوط وهمية تفصل بين كل مجموعة وأخرى ، واضطر اللغوى إلى التخصص فى أسرة من هذه الأسر ليتمكن من فهم اللغة التى يعنى بدراستها ويساهم إن استطاع فى الوصول إلى الهدف الرئيسى ألا وهو تحقيق نظرية برج بابل . والواقع أن هذه السنة الجديدة التى استنتها مدرسة (فون هومبلدت) أتت بأحسن

النتائج ، فقد ظهر من دراسات علماء الأسرات المختلفة أن بين لغات الأسرة الواحدة ، توجد مجموعة من المفردات والخصائص النحوية والصرفية التى تجب العناية بها قبل أن يقدم العالم على عمل دراسة مقارنة بين أسرة وأخرى . فظهر فى الأسرة الهندية الأوربية أمثال (بروجمان) والسامية الحامية (بروكلمان) ، وبالاستعانة بالنتائج التى وصل إليها علماء الأسرتين وغيرهما أصبح من اليسير على (هرمان مللر) و (الفريدو ترومبتى) أن يقدما للعالم مؤلفاتهما التى تؤيد نظرية برج بابل ، وترجع سائر اللغات إلى لغة واحدة أصلية وهى اللغة الأم .

قصصنا الإسلامى

هو ذلك النوع الذى تتداوله العامة ولا تهتم له الخاصة ، وهو الذى يصور لنا الأحداث الجاهلية والإسلامية ويصف لنا الحياة العربية داخل الجزيرة وخارجها ، وقد أريد من تأليفه تثقيف الشعب وتعليمه تاريخه القومى ليتبصر فى ثقافته ، ويتعصب لقوميته . ونحن نعلم منذ فجر التاريخ أن السياسة ممتزجة بالدين امتزاجا قويا ، فقديماً كان الملك هو رب الشعب كما أن الكاهن جمع بين السلطتين السياسية والدينية فى القبيلة . ولما جاء الإسلام وفق بين الحياتين الدينية والسياسية توفيقاً صالحاً ، وسخر كل سلطة منهما لخدمة الأخرى ، فضمن بذلك نجاح الدعوة الدينية وتدعيم النظم الاجتماعية التى نادى بها وعمل على استقرارها . ولا شك أيضاً فى أن نجاح الدعوة المحمدية يرجع إلى شخصية النبى أولا وطبيعة الدين الإسلامى ثانياً ، فقد أيقظ الدين الجديد الشعور القومى ، فجمع بين مختلف القبائل وربط بينهما برباط الدين ، وهذا الاتحاد هو الذى مكن العرب المسلمين من القيام بحروبهم وغزواتهم ، فأصبح التاريخ الإسلامى والدين المحمدى وحدة لا يمكن فصلها . كذلك كان الحال فى فجر تاريخنا ، وسيبقى هذا الحال ما بقى الإسلام . لذلك لا غرابة إذا وجدنا تاريخ انتشار ديننا هو المحور الذى تدور حوله دراسات

المؤرخين ، وحتى قصصنا العربى الشعبى أصبح صدى يردد تلك الحوادث ، وهذه الشخصيات التى تمتُّ إلى ديننا عن قريب أو بعيد بصلة .

قصصنا الإسلامى هو مرآة تتجلى فيها صور هذا الماضى البعيد الذى لازم الإسلام قبيل ظهوره وبعد انتشاره ، وما زال يلازمه حتى يومنا هذا . وهذه الصور التى نجدها فى هذا القصص هى صورة للتاريخ كما فهمه الشعب ، أو كما أراده زعماؤه أن يفهم . فقد كان هذا النوع من الأدب الشعبى حتى وقت قريب من أحسن أنواع المحاضرات العامة التى ابتدعت لتدريس ألقوم تاريخهم الإسلامى ، فمن منا لا يذكر الشاعر وقد جلس بربابته وحوله الجموع قد احتشدت وهو يشنف الأسماع بموسيقاه الصحراوية الجميلة التى لا تمزقها موجات الأثير ، ولا شخشخة المذياع قاصاً ذلك التاريخ الذهبى البعيد . من منا قد نسى قول الجازية وهى على أبواب تونس تحاول اقتحام أبوابها بحيلة أجمل من حيلة أصحاب حصان تروادة .

أنا أمدح محمد أبو القاسم أحمد
من زاره يسعد وينال الفخارا
يا الله إنى أزوره وأتملى بنوره
وأشاهد قصوره وأحظى بالزياره
قالت بنت سرحان بقول فى أوزان
تو الشعر ما بان هاز لى فيه أماره

نظم من الجوادى هيات النشـــادى
يا الله أبلغ مرادى وأرجع بافتخارا
يا بواب منصـــور افتح لنـا الصور
نسر له بدستور ونبيع التجاره
والله ما أفتح الباب لو شفت العـذاب
وألا أضرب بحراب من غز سكارى
افتح لا تبـالى دحنا لا عيـالى
ونبيع المخـالى وأحزمة المهـــارى
والله يا ظريفه خايف من خليفه
له حربه رهيفه تمرق م الحجـــاره
احنا لا خدمهم وندعى حشمهم
ونرعى جمالهـــم يا بواب الاماره
والله يا بنـــاتى خايف م الزناتى
من ضربه ماتى ويزور القبـــاره
فتح البـاب ساهل إلا القلب واجـل
والسـلطان جايل ما فيا جسـاره
افتح الباب يا حبيبى يا مسكى وطيبى
خدتك من نصيبى من دون العـذارى
بنات البـــوادى معنا طيب وكادى
وأحقاق الزبادى فى خرج العطاره

obeikandl.com

للتاريخ والدين ، الأدب واللغة ، كتبت هـذه القصص فنحن لا نقرأ قصيدة من قصائدها إلاَّ ونصلى على النبي ، كما أننا لا نفتح قصة أوسيرة منها إلا ونقرأ مثل هذه العبارات : أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى جعل سـير الأولين عبرة للآخرين ، وموعظة للجاهلين ، وتنبيهاً للغافلين ، يتعظم بذلك أصحاب العقول الـكاملين ، ويعلمون أن الجهاد فرض على المؤمنين ، وإنى قد استخرت الله العظيم فى كتابة هذا الـكتاب حيث رأيته محتويا على نصرة السلام وخذل الـكفرة اللئام :

وأما محتوياتها فمختلفة متنوعة فمنها ما يعرض لوصف المعـارك الحربية كقصة على بن أبى طالب رضى الله عنه وحربه فى وادى السيسبان . كذلك قصـة (ذات الهمة والبطال) التى تبين بصورة واضحة الحروب التى كانت تقوم بين القبائل العربية من ناحية ، وبين العرب والبيزنطيين من ناحية أخرى . فى هذه القصة ومثيلاتها من القصص الحربية نجد الشىء الـكثير من أخبار الحروب والهجرات التى أدت إلى انتشار الإسـلام ، كما نجد فيها كثيراً من الأخبار الغرامية المتصلة ببعض الشعوب الأجنبية . وقد كثرت هذه القصص فى العصور الإسلامية الأولى حيث نجد قصة تحدثنا عن غزوة تبوك ، كما نقرأ فى كتاب آخر يتصل بفتح اليمن ويعرف برأس الغول وصفاً لفتح تلك البلاد ، وفيه يقوم الإمام على بدور البطل الأول . كذلك وصلتنا قصـة حول فتح مكة واسمها « الدرة المـكللة فى فتح مكة

المشرفة المجدة » على هامش فتوح الشام المنسوب لمحمد الواقدى .
ومن الجدير بالذكر هنا أيضاً أن موقف النبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود ، خاصة يهود خيبر ، وجد صداه فى القصص العربى ، إلا أن شخصية النبى حلت على شخصيات أخرى وأبطال شعبيين مثل عنتر وأبى زيد الهلالى .

وغير تطاحن القبائل وحروب النبى نجد فى قصصنا الإسلامى صوراً عديدة من صور حروب المسلمين فى صدر الإسلام مع غير العرب خاصة مع المجوس والبيزنطيين ، وهذه الحروب نلمسها بوضوح فى مثل قصص سيف بن ذى يزن ، وعنتر ، ومحمد الكردى ، وبنى هلال ، وغيرها . فهذه القصص وإن كانت قد رددت صدى الفتوحات الإسلامية ، إلا أنها لم تفرد دائماً لكل غزوة أو حرب قصة مستقلة . فنحن نقرأ فى كثير منها أخباراً ترجع إلى عصور مختلفة ، كما أننا نجد فيها من الحوادث الكثير الذى لا يمت إلى الإسلام بشىء . ومن هذه القصص أيضاً ما ترجع حوادثها إلى الجاهلية ، ولو أن الفن القصصى جعل من أبطالها أمثال عنتر وسيف بن ذى يزن مسلمين مبشرين بالإسلام . وهذا ليس بغريب فالإسلام قديم فى الجزيرة ، وهو ملة إبراهيم ، لذلك كثيرا ما نجد فى قصصنا بعض العبارات التى تشير إلى قدم الإسلام وتوحيد إبراهيم مثل : أشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم خليله .

ومن أشهر القصص الإسلامية التاريخية قصة عمر النعمان ،

وذات الهمة والبطال ، والقصتان تكتسبان شهرتهما من حيث إنهما تعالجان بعض الأحداث الإسلامية التى وقعت فى آسيا الصغرى . ففى القصة الأولى نجد الأبطال يقومون بدور المسلمين ، ولو أن الأسماء التى خلعت عليهم هى فى الواقع أسماء رمزية لا تكشف لنا القناع عن شخصياتها التاريخية . أما بطل القصة الحقيق فاسمه عمر أو عمرو النعمان واسم خصمه ساسان . فمن الاسمين نسمع صدى الحروب التى نشبت قبل الإسلام على حدود فارس بين العرب والفرس ، ومن ناحية أخرى نجد أن محتويات القصة تشير إلى بعض التواريخ التى تتصل بالحروب الإسلامية البيزنطية . فهى تحدثنا عن حصار المسلمين للقسطنطينية ذلك الحصار الذى دام عاما كاملا ، (٧١٦ — ٧١٧) . كذلك فى إحدى مخطوطات هذه القصة المحفوظة بمكتبة جامعة (توبنجن) بألمانيا ذكر اسم القيصر البيزنطى الذى حوصر وهو (لاوى) ولا شك فى أن هذا الاسم هو التسمية العربية للفظ (ليو) الذى قاوم فى الحصار مقاومة عنيفة .

أما قصة « ذات الهمة والبطال » فمؤلفها يدعى نجد بن هشام الهاشمى الحجازى ، وهى تلخص فى أن المؤلف بعد أن عدد مناقب بنى كلاب وأفضليتهم على بنى سليم أخذ يتحدث عن صلة القرابة بين بنى سليم وبين الأمويين . هذه القرابة التى أكسبتهم الشىء الكثير من الجاه وسعة النفوذ . وكان على رأس بنى كلاب بطل يدعى

جندبة بن الحارث وكان شجاعا متسامحا مع الضعفاء شديداً على الأقوياء . وعلى رأس بنى سليم كان مروان بن الهيثم وكان أيضا شجاعا محترما . أما أم جندبة فكانت تدعى الرباب وقد وضعته فى الصحراء أثناء هربها بعد موت زوجها الحارث ، وتحدثنا القصة بعد ذلك أنها توفيت بعد وضعه ، فوجده أمير تلك الجهة واسمه دارم فأخذه واعتنى به فلما كبر وترعرع أغرم الصحصاح بن جندبة بفتاة غاية فى الجمال تدعى ليلى بنت عطاف وتزوجها ورزق منها بابن دعاه (ظالما) . ومن ثم رحل الصحصاح خفية وتزوج من بنى الوحيد فتاة اسمها إمامة ولدت له ابنه (مظلوما) . ثم فر والتحق بدير فأقام فيه مدة قرر بعدها العودة إلى زوجه ليلى إلا أن وحشا افترسه فى الطريق ولم ينج إلا حصانه الذى واصل السير حتى جاء إلى بنى كلاب ، فأدركوا أن الصحصاح مات . وهنا نجد ابنه ظالما ينطلق باحثا عن ميراث أبيه ، فيركب مع جماعة من قومه ويتوجه إلى دمشق . ولكن حدث أن توفى فى ذلك الوقت الخليفة الوليد فيستقبله سليمان ويكرمه ، وتفد وفود العرب من مختلف الجهات للاحتفاء بظالم حتى عبيد الله سيد بنى سليم بعد موت والده مروان ابن الهيثم . ثم بعد ذلك جاءت أم مظلوم وكان عمره فى ذلك الوقت خمسة أعوام وطالبت (ظالما) بنصيب ابنها فى ميراث والده فيقسو عليها (ظالم) ويطردها ، فتعود بطفلها (مظلوم) إلى بنى الوحيد حيث عنيت به قبيلة أمه عناية خاصة ، ونشأته على الشجاعة وركوب

الخيل ، فلم يمض زمن طويل إلا وأصبح سيد قومه . وهنا نرى القصة تعرض لنا صورة من أدق الصور تعبر لنا عن النزاع الذى قام بين الأخوين هذا النزاع الذى انتقل من يدهما إلى بنى كلاب ، وبنى الوحيد ، ثم يتوسط شيوخ القبيلتين بين الفريقين ، ويعقد الصلح على أن تنتقل زعامة القبيلتين إلى الطفلين الذين سيولدان لظالم ومظلوم ، وولدت امرأة ظالم ولدا وأسمته الحارث ، ووضعت امرأة مظلوم وليدة أهدتها إلى صديقة لها تدعى سعدى وأخفت وزوجها أمر الفتاة على أهل القبيلة ، وادعى مظلوم أن زوجه وضعت ولدا توفى لساعته . أخذت سعدى الفتاة وسمتها فاطمة وأخذت تعنى برضاعتها ونشأت الفتاة فى بنى كليب حتى كان أن أغارت قبيلة طى على بنى كليب وأخذت كثيرا من الأسرى من بينهم كانت سعدى ، وابنها مرزوق ، وفاطمة . ومن ثم تذكر القصة كيف أن فاطمة هذه قتلت كثيرين من رجال طى الذين حاولوا الاعتداء على عفافها حتى ذاع صيتها بين القوم ، وأطلقوا عليها لقب (ذات الهمة) . ومنذ ذلك الوقت أخذت تحيا هى ومرزوق حياة كلها مغامرات ومجازفات . وبعد ذلك نجدها تضع غلاما تطلق عليه اسم عبد الوهاب أراد الخليفة الواثق تعيينه واليا على القسطنطينية فرفض ، ثم تنتهى حياة ذات الهمة وابنها كما تنتهى حياة معظم أبطال القصص العربى أعنى فى الحجاز بعد تأدية فريضة الحج .

أما (بطال) فهو قائد حربى تاريخى استشهد عام ٧٤٠ م فى الحرب ضد البيزنطيين فنشأت حوله سلسلة من القصص والأساطير خاصة أيام الحروب العباسية البيزنطية . وقد ختمت هذه القصة

حوالى أوائل القرن الثانى عشر إن لم تكن من قبل . وقد أثرت تأثيرا كبيرا فى العالم الإسلامى حتى إن الأديب التركى ابتدع قصة أخرى تستمد من قصتنا العربية خيالها وبعض وقائعها وهى التى تعرف بقصة (سيد بطال) .

وغير هذه القصص الإقليمية نجد أخرى فردية كقصة ابن خازم ذلك الثائر الذى شق عصا الطاعة على الوالى الأموى على خراسان ، واعتصم بحصن (ترمذ) مدة تقرب من خمسة عشر عاما كما أن التاريخ حفظ لنا قصة حول ابن أبى مسلم الخراسانى والحاكم بأمر الله ، ولعل أجمل قصة وصلتنا تتعلق بالشام ومصر هى سيرة الظاهر بيبرس التى سجلت لنا انتصارات المسلمين على الصليبيين ، كما أنها تحدثنا عن العلاقات التى قامت بينه وبين الفداويين الذين كانوا يقطنون الشام ، والذين انحدروا من الحشاشين .

ليست هذه القصص التى جاء ذكرها هنا هى كل تراثنا القصصى الإسلامى ، فدور الكتب ملأى بالمخطوطات التى تدلنا على غزارة الخيال العربى وقوته الخالقة ، وكلما أمعنا فى دراسة هذه القصص والعناية بها تكشفت لنا أوجه النقص فى الكثرة المطلقة من الكتب العربية التى يدعى أصحابها أنها دراسات حول الأدب العربى أو عصر منه ، وذلك لأن المتشدقين من هؤلاء الأدباء يجهلون لغات الجزيرة قبل الإسلام ، ولا يعرفون من اللغات العربية إلا اللهجة القرشية ، وحظهم من القصص العربى الذى تتصل حوادثه بأدبنا فى الجاهلية إلى اليوم قليل جدا .

سيرة سيف بن ذى يزن

وهذه سيرة من سير الأدب العربى الشعبى بشرت بالإسلام فى الجاهلية ، وعرضت المسألة السامية الحامية فى كل جزء من أجزائها السبعة عشر . وهى تلح على القارىء فى وجوب الاعتقاد بأقدمية الإسلام ، وأفضلية نسل سام/ . وقد اعتمدت فى تأييدها للفكرة الأولى على ديننا الحنيف وتعاليمه القائلة بأنه قديم ، وأنه ملة إبراهيم . كما أنها عند تفضيلها للساميين على الحاميين استكتبت التاريخ ، واستلهمت العصور ، واستخدمت مختلف وسائل الدعاية .

ولأمر ما تبدأ السيرة حوادثها بالكلام عن الملك اليمنى التبعى ذى يزن الذى ذاع صيته ، واشتهر أمره ، ودانت له بلاد العرب الجنوبية ، واتخذ له وزيرا حكيما عاقلا تصفه السيرة بأنه لا نظير له فى مشرق الأرض ولا فى مغربها . وكان اسمه (يثرب) ، وكان مطلعا على كثير من الكتب القديمة واللاحم العظيمة بما فيها التوارة ، والإنجيل ، وصحف إبراهيم الخليل . وقد علم (يثرب) من تلك الكتب أن نبيا اسمه محمد سيظهر الإسلام ويبطل سائر الأديان التى لأهل الكفر والطغيان ، ومن ثم تأخذ السيرة فى عرض العلاقات بين جنوب الجزيرة وشمالها بأسلوب قصصى فكه وفى صورة جذابة .

فنحن نرى الملك ذا يزن بعد العدة ويجهز الجيوش ويسير هو على رأسها إلى الشمال لمحاربة الملك (يعلبك) ، ولم تكد جيوشه تصل إلى بيت الله الحرام إلا ويظهر ذو يزن رغبته فى هدم الكعبة ونقلها إلى اليمن[1] فينتقم رب البيت منه ، ويسلط عليه مختلف الأمراض التى أنتته عن عزيمته . وعلى أثر هذه المعجزات يعتنق هو وجيشه الإسلام ويشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم خليله ، ويكسو الكعبة . ثم نجد الوزير (يثرب) الذى كان يدين بالإسلام سرا يعلن إسلامه ، ويرجو الملك أن يسمح له ببناء المدينة التى أطلق عليها اسمه ، وذلك لأنه قرأ فى كتب المتقدمين أيضا أن محمدا سيهاجر إليها . وبعد أن يفرغ ذو يزن من أرض الحجاز نراه يتجه شمالا إلى يعلبك ويبسط سلطانه ، ومن ثم ينتقل إلى أرض الحبشة والسودان ، وهنا تنتهى حقيقة حدود مناطق النفوذ العربى الجنوبى . فالنقوش التى عثر عليها رجال اللغات السامية سواء فى بلاد اليمن أو على طول الطريق التجارى الممتد من جنوب الجزيرة إلى شمالها مارا بمكة ويثرب ومدائن صالح وتيماء وتبوك وعمان ودمشق ، وكذلك فى بلاد الحبشة تثبت أن تلك البقاع كانت يوما ما خاضعة للنفوذ التجارى أو الثقافى أو السياسى اليمنى .

---

(١) يذكر ابن هشام وابن الكلبى وتؤيدهما النقوش السامية على أنه كانت فى الجزيرة العربية كعبات أخرى غير كعبة مكة كـكعبة نجران باليمن وسنداد بالعراق .

لكن فى الحبشة والسودان نرى السيرة تنحو نحوا عجيبا فهى هنا تمزج الدعوتين الإسلامية والسامية ببعضهما مزجا تاما ، فهى بعد أن كانت لا تعنى إلا بالإسلام وأقدميته أخذت تتحدث عن الساميين والحاميين ، فنرى الوزير يقول مخاطبا ذا يزن :

وجللت بيت الله خزا مزركشا ... يحير عين الناظرين مرقما
وساعدتنى حتى بنيت مدينتى ... يهاجر فيها سيد الأرض والسما
ويظهر دين الحق شرقا ومغربا ... فيا فوز ذاك العصر من كان مسلما

إلى أن يقول :

فإن مليكا يملك الأرض كلها ... يكن حميريا تبعيا ومسلما
بدعوة نوح داعيا كل أسود ... لأولاد سام تابعين وخدما

وتعرض السيرة بعد ذلك لشرح دعوة نوح هذه كما يرويها أبو المعالى راوى سيرة الأمصار ، وسائق النيل من أرض الحبشة والسودان إلى هذه الديار فهو يقول : إن نوحاً عليه السلام نام مرة وكان سام قاعداً عند رأسه ، وحام تحت رجليه ، فهب الهواء وكشف عن عورة نوح فضحك حام وغضب سام وتشاجر الاثنان ، فاستيقظ نوح واستطلعهما الخبر ، فقص عليه سام ما فعله حام ، فغضب والدهما غضبا شديدا ، ودعا على حام بسواد البشرة وتمنى لذريته استعباد نسل سام لها : وفى موضع آخر نقرأ كيف هاجر حام إلى أفريقية وكيف تزوج (قر شاهق) بنت الملك (كركار) ومن ذريتهما انحدر العنصر الحامى الأسود . فهذه الفكرة التى

تتحدث عنها السيرة أعنى أن الحاميين إخوة للساميين هى فكرة صحيحة حتى إن علماء الأجناس واللغات يطلقون على الأسرة التى تضم هؤلاء الأقوام أو لغاتهم الأسرة السامية الحامية . كما أن القول بأن الجزيرة العربية هى الوطن الأصلى للساميين والحاميين صحيح لا غبار عليه . أما هذه العداوة التى نجد صداها فى مواضع كثيرة من السيرة والتى نقرأ شيئا منها فى شعر يثرب ، وفى دعوة نوح ، وفى قول شامة بنت الملك الافريقى أفراح :

عسى الصفو يهدى إلى نسل حام ... ينال الون عزا بقدر مهاب

عسى بطشة الدهر فى نسل سام ... يصيرون فى الناس مثل الكلاب

فتفسيرها هذه الحروب الطاحنة التى قامت بين الساميين من ناحية وبين الحاميين من ناحية أخرى أعنى بين العرب والحبش والسودان . فالمصادر التاريخية التى بأيدينا سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية تحدثنا عن كثير من هذه الحروب التى اتخذت أشكالا مختلفة ؛ فهى طورا دينية ، وطورا استعمارية ، وطورا تقتصر على الساميين والحاميين ، وطورا تتعدى العنصرين إلى الزنوج والأوربيين[1] ، وإن كانت السيرة حريصة الحرص كله على ألا

---

(١) فى حوالى منتصف القرن السادس عشر تمكن القائد الحبشى المسلم أحمد إبراهيم من هزيمة نجاشيين من نجاشى الحبشة وهما (ابنا دنجل) وابنه (كلوديوس) فاستعان الأخير بالبرتغاليين الذين أرسلوا حملة تحت قيادة (كريستوف دا جاما) أبيدت عن آخرها (راجع مقالا لى فى هلال ديسمبر عام ١٩٣٥) .

تتعرض للنوع الأخير لعدم اتصاله بالعصر الذى تميل إلى تصويره لنا أعنى العصر الجاهلى . فالسيرة فى حديثها عن هذه الحروب تفتن فى عرض الحياة وأعمال البطولة ، وهى صادقة فى هذا العرض إذا اعتقدنا أن هذه السذاجة ترجع إلى عصر متأخر لا إلى عصور سابقة للإسلام أو المسيحية . فسيف بن ذى يزن الذى ولد لأبيه فى أفريقية ، والذى لقب بوحش الفلاة ، والذى أتى فى صباه بأعمال كثيرة تدل على بطولته وشجاعته ، والذى أسند إليه مؤلف السيرة الدور الرئيسى ، شخصية تاريخية لا يتسرب الشك إليها ، فهو الأمير اليمنى الذى قاد الجيوش العربية الجنوبية وطرد الحبش من بلاده بمساعدة الفرس عام ٥٧٠ م وقد تحدث ابن هشام عنه وذكر لنا الكثير من الأشعار التى تنسب إليه أو قيلت فيه . ولم تقف شهرة هذا القائد العظيم عند هذا بل نراه جدا للأسرة الحاكمة فى (بورنو) وبطلا من أبطال قصص سكانها

ولكن بينما نجد مؤلف السيرة يختار سيف بن ذى يزن قائدا للساميين إذ به يسند زعامة الحاميين إلى ملك حبشى يدعى (سيف أرعد) فكان فى اختياره للشخصية الثانية غير موفق ، وذلك لأن التاريخ الحبشى ينص على أن (سيف أرعد) هذا حكم البلاد فيما بين عامى ١٣٤٤ — ١٣٧٢ م أعنى فى القرن الرابع عشر بينما سيف ابن ذى يزن من أبناء القرن السادس . ونقرأ فى التاريخ الحبشى أيضا أن حياة هذا الملك كانت امتدادا لسلسلة أعمال القسوة والإرهاب

التى شنها والده (عمدا صيون) (١٣١٤ — ١٣٤٤) على المسلمين القاطنين فى تلك البلاد والأقطار المجاورة حتى إنه أغار على صعيد مصر وأطلق سراح بطريرك الاسكندرية الأنبا مرقس الذى كان قد قبض عليه والى مصر وسجنه لامتناعه عن دفع الجزية . فنحن نرى من هذا أن النزاع بين الحاميين والساميين انتقل إلى مصر بعد أن كاد يكون قاصرا على الجزيرة العربية ، والقارة الأسيوية . ولعل من الأسباب القوية التى نقلت هذا النزاع إلى قارتنا وخاصة إلى وادى النيل — إلى جانب الخلافات الجنسية والدينية — العوامل الاقتصادية ، وقد أشار إليها مؤلف السيرة وعبر عنها تعبيرا لا يقل طرافة عن أحاديث الإحصائيين من رجال وزارة الأشغال ، فقد ذكر فى الصحيفة التاسعة عشرة من الجزء الأول ، طبع القاهرة سنة ١٣١٠ هـ ما نصه : — واعلم يا ملك الزمان أن هؤلاء الحبشة والسودان لا بد أن تنفذ فيهم دعوة نوح عليه السلام لأنه مجاب الدعوة بين الأنام ، ولا شك فى ذلك وأنهم يخافون على مجرى النيل من نزوله إلى الأرض الوطيئة خوفا أن ينزل إلى مصر فهم جاعلونه على قدر أرضهم ، وإذا فاض يجعلون له تصاريف ينصرف فيها إلى الربع الخراب ، وأنهم لا يعملون عملا إلا بإذن الحكماء ، وهذا هو الصحيح ، والأمر الرجيح : وما زال الوزير يثرب يتحدث مع الملك فى مجرى النيل ووادى الأمصار وفى شأن الحبش ، ويتفق المقريزى مع مؤرخى الحبشة على أن خصومات قوية قامت بين

سيف أرعد وبين المسلمين ، وأن هذه الخصومات كانت سيئة جدا حتى إن مصر اضطرت إلى التدخل لوقف هذا العدوان . وكان تدخل مصر هذا إلى جانب الأسباب الأخرى من العوامل التى جعلت الأمتين فى سلام حينا وعداء حينا آخر . كما أن شخصية سيف أرعد أصبحت بغيضة إلى مسلمى مصر وموضعا للقصص والسخرية . وكتابة هذه السيرة التى يرجح أنها وضعت عقب وفاة سيف أرعد ، أعنى حوالى نهاية القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الخامس عشر .

فى تلك الفترة ألفت السيرة ، ومصر هى وطنها . وذلك ما يلمسه القارىء فيها ، فمؤلفها خبير بمصر وجغرافيتها ، لغتها وعاداتها ، فهو يذكر لنا كثيرا من بلادها وشوارعها ، وقد جاء فى السيرة ذكر أسوان وإسنا ، وأخم وأسيوط ، ومنفلوط وملوى ، وأهناس وحلوان ، والجيزة ومصر ، وحارة بير الوطاويط ، وقلعة الجبل ، والروضة ، وبولاق . كما ذكرت كثيرا من مدن الوجه البحرى كدمنهور ، وفوة ، وفارسكور ، واسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ، وسمنود . أما لغة المؤلف فغنية جدا بالتعبيرات المصرية بالرغم من محاولته إلباسها الثوب العربى الفصيح . ونحن نذكر هنا على سبيل المثال (عينى رفت) و (وجه قدر الصينية) و (يا نور عينى) .

والآن قبل أن نختم حديثنا عن هذه السيرة نحب أن نشير إلى ملاحظة هامة لاحظناها عند دراستنا لها وهى أنها لم تصلنا كما وضعها مؤلفها بل أقحمت عليها مع مر العصور بعض النصوص

التى تتعارض والأغراض الرئيسية التى رمى إليها المؤلف . وإلا فكيف نفهم أن سيف بن ذى يزن هو زعيم العنصر السامى وأنه سامى لغة وجنسا وينحدر من نسل حام كما جاء فى الصحيفة السابعة والخمسين من الجزء الثانى من السيرة : وهو سيف بن ذى يزن بن أسد البيداء بن حسان التبعى اليمان بن مهلول بن ماهيل بن أرجوان ابن بحرون بن جندح بن حمير بن هانئ بن مروان بن شروان ابن حمير بن عبقيف كوش بن حام .

الهلالية

وهذه قصة شعبية أخرى تختلف اختلافا كبيرا عن سائر القصص العربية التى نعرفها لسيرة بنى هلال ، فهى كما يدل عليها اسمها ليست سيرة فرد بل جماعة ، وحوادثها الرئيسية وقعت فى غربى العالم الإسلامى لا فى شرقيه ، وفى صقع هو وطن لمزيج من أجناس لا فى بلاد عرفت بوحدة العنصر وبعدها عن الدخيل . فى شمال أفريقية حيث العنصر الفينيقى السامى والبربرى الأفريقى ، ذلك الشعب صاحب التاريخ القديم والأثر البعيد فى حضارة البحر الأبيض المتوسط ، والذى كانت تربطه بروما إلى جانب الروابط السياسية الثقافة اللاتينية ، لذلك لا عرابة إذا رأيناه يتطلب من العرب المسلمين معاملة خاصة تختلف عن سائر المعاملات التى عرفتها البلاد الأخرى التى خضعت للإسلام والمسلمين ؛ فتاريخنا يحدثنا أن أمور تلك البلاد اضطربت اضطرابا خطيرا عقب وفاة فاتحها وقاهرها عقبة بن نافع ، ونحن نعلم أيضا أن قبائل بربرية كثيرة ارتدت عن الإسلام بعد أن اعتنقته حتى إن الوليد بن عبد الملك اضطر إلى إعادة فتحها بإسناد أمورها إلى موسى بن نصير . وبالرغم من يده الحديدية التى حكم بها البلاد فنحن نجد العروبة والإسلام فى كفاح دائم يختلف حدة وضعفا

باختلاف العصور مع البربرية والوثنية ، ولعل أجمل صورة من صور هذا النزاع هى تلك التى تقدمها لنا سيرة بنى هلال فى أسلوبها القصصى الشعبى لا التاريخى العلمى الذى تركته لأمثال ابن الأثير وابن خلدون . فسيرة بنى هلال وإن لم تكن فى حجم سيرة « ذات الهمة والبطال » التى تقع فيما يقرب من اثنين وعشرين ألفا من الصفحات إلا أنها تعتبر من كبريات القصص العربية الشعبية . وكما أن مكتبة الدولة ببرلين تفخر بامتلاكها لمخطوطة « ذات الهمة » فهى ليست أقل تيها بنسخة السيرة الهلالية التى تخالف النسخ المتداولة بيننا اليوم .

ونستطيع أن نقسم هذه القصة إلى ثلاث حلقات :

الحلقة الأولى : وهى التى تعالج بنى هلال منذ ظهورهم فى الجزيرة حتى استيطانهم بلاد السرو . والحلقة الثانية تحدثنا عنهم وقد رحلوا إلى نجد . بينما الثالثة ويطلق عليها تغريبة بنى هلال اهتمت بخروجهم وأعمالهم فى الغرب .

أما الحلقة الأولى : فتبدأ بالحديث عن بنى هلال ونسبهم وذريتهم فهى تقول إن هلال بن عامر وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه قومه وأسدى إلى المسلمين معاونة قوية حتى إن النبى أسكنه وادى العباس . وقد اشتهر هلال هذا بالشجاعة والكرم ، ورزق بولد دعاه المنذر ، ولم يكد المنذر هذا يبلغ مبلغ الرجال حتى ترك والده واحترف الفروسية وقام بكثير من أعمال السلب والنهب . ثم

تعرف إلى الأمير (مهذب) وتزوج بابنته (هذبا) ، ومضت على زواجهما عشرة أعوام ولم يرزق منها بطفل ، فقرر الزواج بأخرى ورحل إلى بلاد (السرو وعبادة) حيث تزوج بابنة الملك الصالح واسمها (عذبا) . وبعد ذلك نرى السيرة تحدثنا أن (هذبا) وضعت له (جابرا) كما وضعت (عذبا) جبيرا . ولم يمض على ولادة الطفلين زمن طويل حتى نرى الغيرة تدب بين الاثنتين ونرى كلا منهما تريد المنذر لها ولابنها ، وهنا تعرض لنا السيرة هذه الناحية من نواحي الحياة الشرقية الاجتماعية عرضا جميلا ، وينتهي الأمر بطلاق (عذبا) ورحيلها مع ابنها (جبير) إلى نجد . ومن نسل جابر وجبير انحدرت إلينا رجالات بني هلال ونساؤهم الذين قاموا بالأدوار الهامة في مختلف فصول السيرة . فجابر ولد له عامر ، وتامر ، وهشام ، وحازم . ومن نسل هؤلاء انحدر (رزق) والد أبي زيد ، وسرحان والد السلطان حسن . أما جبير فقد ولد رياح ، وحنظل ، والنعمان . ومن ذرية رياح دياب . فمن جدول النسب هذا يتبين لنا أن أبا زيد من نسل جابر بينما دياب من ذرية جبير .

وبعد قصة جابر وجبير نقرأ خبر زواج (رزق) بخضراء وكيف أنه رزق منها بفتاة تدعى (شيحا) وفتى يدعى (بركات) . وكان الولد أسود اللون لذلك اتهمت خضراء في عرضها وانتهى الأمر إلى رحيلها وابنها إلى بلاد الأمير الزحلان عدو بني هلال ، فيكرم الأمير وفادتها ويعنى بها وبتربية ابنها ويوكل أمر تعليمه إلى خطيب كان

يشرف على ابنيه (منعم ونعيم) ثم يحدث شيء من سوء التفاهم بين الخطيب وبركات فيعتذر الخطيب بقصيدة فيها شيء من الطرافة لأنها تذكر لنا المواد التي كان يدرسها الخطيب في ذلك العصر ، فهو يعنى باللغات وخاصة السامي منها :

ولسان عبراني اليهود بينفعك ولسان سرياني تصير مشير

والطب والرياضيات والكيمياء :

والطب أيضا دانيال أعلمك وعلم الحساب وكل علم ظهير

وأعلمك علم الصباغات كلها تصبغ لروحك ما تريد يا أمير

ويحدث أن يهاجم الهلاليون بلاد الزحلان فيتصدى لهم بركات ويأخذ والده أسيرا ويعترف له الهلاليون بشجاعته ويطلقون عليه (سلامة) ، ويعجب به الزحلان ، فيزوجه بابنته (غصن البان) وتعلو مكانة (سلامة) في أعين الهلاليين الذين رأوا كيف أن مهابته آخذة في الزيادة لذلك أطلقوا عليه منذ ذلك الوقت اسم (أبي زيد الهلالي سلامة) . وبعد أن تفرغ السيرة من سرد حروب الهلاليين مع الزحلان تنتقل إلى سرحان ، وتحدثنا عن خبر تعرفه بشما ، ووقوعهما في أسر الافرنج ونجاتهما بحيلة لطيفة ثم تسجل لنا بعض الأغاني الشعبية التي نرى ما يشبهها وزنا وقافية في أغانينا الصعيدية الحديثة التي يسهل حفظها ويحلو ترنيمها . وهذا النوع من الفن الشعري إن ذكرنا بشيء فإنما بفن الملاحم السامي القديم ، والذي

وصلتنا نماذج منه فى الأدب البابلى الأشورى ، فاسمع (شما) تصف نفسها :

ربى عطاكِ هنى والكف متحنى
وخشوف وردنى فى موج ومويه
أنظر لشامتها هذى علامتها
أنظر لقامتها شبه الرديميه
والشعر مثل الليل كأنه سباسب خيل
والوجه مثل السيل وعيون هنديه

واصغ إلى سرحان يعاتبها :

شما تلفتينى بحبك ضنيتينى
قومى واسقينى من فوق شبريه
قومى أتى دورك وهلكت من جورك
بالليل أنا أزورك وها لوقت شويه

وقبل أن تنتهى الحلقة الأولى من السيرة نقرأ شيئا كثيرا عن أعمال الهلاليين فى اليمن والهند .

أما الحلقة الثانية فتبدأ برحلة السلطان حسن وأبى زيد من بلاد السرو إلى نجد حيث تعيش قبيلة زغبة وذريبة جبير أعنى الأمير غانم وابنه دياب ، وسبب هذه الرحلة القحط الذى حل ببلاد السرو . وفى طريقهم إلى نجد نقرأ فصلا طويلا عن حروبهم مع يهود خيبر

وانتصارهم عليهم وفى نجد يتزوج السلطان حسن (نافلة) أخت دياب بعد أن يعده بأخته (نور بارق) أى الجازية . وفى هذه الفترة نجد وصفا المعارك التى قامت بين الهلالية ، والعقيلى ، وحنظل ، والهيدبى ثم تنتهى إلى الاصطدام بين أبى زيد ودياب . ولا تنتهى هذه الحلقة إلا بعد أن تطيل فى الحديث عن بطولة العرب عامة والهلالية خاصة وانتصاراتهم على الافرنج .

وتغريبة بنى هلال أو الحلقة الثالثة من حلقات هذه السيرة تعنى بأعمال الهلاليين فى الغرب خاصة فى شمال أفريقية ، وهذه الفترة من فترات التاريخ الإسلامى صحيحة لا شك فيها ، كما أن بنى هلال عرفتهم الجاهلية وعاشوا فى الاسلام وقاموا وحلفاؤهم بنصيب وافر فى سبيل العمل على تعريب تلك البلاد جنسا وثقافة ، فابن الأثير يحدثنا فى كامله بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج فى العام الرابع من زينب بنت خزيمة أم المساكين وهى من بنى هلال ، ثم يذكرهم مرة عند الحديث عن غزوة هوازن ومرات كثيرة أخرى فى مناسبات مختلفة . أما خروجهم إلى أفريقية فقد ذكره أكثر من واحد من المؤرخين ، أذكر منهم هنا ابن خلدون ، فقد جاء فى ص ٦٢ — ٦٣ من الجزء الرابع من تاريخه ما نصه : — كان المعز بن باديس قد انتقض دعوة العبيديين بأفريقية وخطب للقائم العباسى وقطع الخطبة للمستنصر العلوى سنة أربعين وأربعمائة فكتب إليه المستنصر يتهدده ، ثم إنه استوزر الحسين بن على التازورى بعد

الجرجراى ، ولم يكن فى رتبته فخاطبه المعز دون ما كان يخاطب من قبله فحقد ذلك وأغرى به المستنصر وأصلح بين زغبة ورياح من بطون هلال وبعثهم إلى أفريقية وملكهم كل ما يفتحونه وبعث إلى المعز : — أما بعد ، فقد أرسلنا إليك خيولا ، وحملنا عليها رجالا فحولا ليقضى الله أمراً كان مفعولا :

وبينما نجد التاريخ جافا فى تصوير هذه الحملة إذ بالسيرة تعرضها عرضا وافيا مستفيضا ؛ فهى تخبرنا أنها أعدت كأحسن ما تعد حملة اليوم فنحن نقرأ خبر إرسال العيون إلى البلاد أولا لاستطلاع أخبارها ومعرفة قوتها وأحسن الطرق الموصلة إليها وكان هؤلاء الجواسيس من خيرة أبناء الهلاليين من مرعى ويونس وأبى زيد ، ويقع جميعهم فى قبضة العدو ولا يفرج إلا عن أبى زيد الذى عاد وجهز الجيوش لفتح تونس . ويسير أبو زيد مع بنى زحلان ، وحسن مع بنى دريد ، ودياب مع بنى زغبة ... ويؤتى بالجازية من مكة لتكون فى الطليعة . ثم نقرأ قصصا كثيرة حول هذه الجيوش والتقائها بالخفاجى عامر ، والملك الغضبان ، والخزاعى ، وشبيب التبعى والبردويل بن راشد ، وأشهرها هى قصة بنى هلال مع الماضى حاكم صعيد مصر/ وما كادت تتحرك هذه الجيوش لملاقاة الزناتى خليفة حتى زودها أبو زيد بخططه الحربية الخطيرة ؛ فهو يضلل جواسيس العدو مرة ، ويستولى على عيون المياه مرة أخرى ويأتى بحيل لا تقل طرافة عن حيل قواد الحرب الحالية . وقد أطلق مرة المنادى ينادى

العرب : « كل من كان عنده ناقة والدة يبعد ابنها عنها أو فرس والده يبعد ابنها عنها وكل من كان عنده حصان طلوق يجيبه عند فرس شايع ويلحقونا على عين الخطيرى . وتخلى العرب كلهم يدقوا طبولهم فى نزولهم على العين ، فيسمع الزناتى حنين المهارى ، وصهيل الخيل ، وحس الطبول فينكسر قلبه قبل ما يجى لنا الحرب» . كما أنه كثيرا ما استخدم النساء للتسرب إلى داخل البلاد والقيام بأعمال السلب والنهب لإيقاع الذعر بين الأهلين والتمهيد لدخول الجيوش . وكان تنفيذ هذه المهمة يوكل عادة للجازية التى كانت تقوم بها خير قيام . فاسمعها مثلا تتحايل على منصور أحد بوابى تونس وتمنيه وتغريه بمختلف المغريات :

افتح لا تخـــالف إنك رجـل عارف
وانظر ن الوصـايف لرية وســـاره
روحى يا صبيـــه ماد لا بليـــه
قد جتنـــا المنيه لعنـــد الديار
وشوف نجلا المليحه مع حسنه الرجيحه
حين ترخى المسيحه مع طراف الخمـار
تنصب لك عـلامه ما بين الغـــراما
قـل يا لله السـلامه فى هذا النهـــارا

وبعد حديث طويل نجد الجازية تتغلب على منصور ويفتح لهـا ولمن معها من نساء ورجال البـاب ويتمكن الهلاليون من إطلاق

سراح مرعى ويونس ثم تدور الدائرة على الزناتى فيقتل بفضل خطة وضعتها ابنته سعدة التى شغفت بمرعى عندما كان فى سجن أبيها . فهى التى أشارت على الهلالية بإرسال دياب إلى أبيها ومنازلته لأن دياباً أقدر الفرسان لمنازلة خليفة .

خلا الجو للعرب فى تونس ، واستولوا على عروش الغرب السبعة ، وشرعوا فى تقسيمها بينهم كما أخذوا فى الاستعداد لغزو مراكش . وهنا نجد النزاع الذى كان قائماً بين العرب فى الجزيرة أعنى بين اليمنية والقيسية ينفجر مرة أخرى فى أفريقية ، فيمثل أبو زيد القيسية ودياب اليمنية . وقد مهدت السيرة لذلك أحسن تمهيد ؛ فهى فى جدول الأنساب الذى ساقته من قبل جعلت دياباً ينحدر من فرع تجرى فى عروقه دماء حمير فهو دياب بن غانم بن رياح بن حمير بن رياح بن جبير ، فذكر (حمير) هنا لم يأت عبثاً وإنما تمهيد لسائر الخصومات التى قامت بين أبى زيد من ناحية ودياب من ناحية أخرى ، وهو يعلل لنا قتل دياب للسلطان حسن وأبى زيد فيما بعد .

أدت هذه القبائل القيسية رسالتها فى شمالى أفريقية وجعلته عربياً جنساً وثقافة ودينا حتى يومنا هذا . وبعد ذلك نقرأ خبر انتقال دياب إلى السودان والحبشة ، ويقتل دياب ويتولى ابنه نصر الدين الزغبى حكم بلاد الغرب وتنتقل بعض القبائل القيسية إلى صعيد مصر ثانية ، فأعالى النوبة ، فالخرطوم ، فدارفور حيث نسمع عن وجود قبائل عربية مثل الرزيقات نسبة إلى رزق والد

أبى زيد وقبيلة سليم نسبة إلى بنى سليم . وهنا تؤيد السيرة أبحاث المؤرخين ورجال اللغات السامية فهم مجمعون على أن لهجة صعيد مصر ، وعرب أولاد على غرب الاسكندرية ، ومالطة ، وشمالى أفريقية ، وأعالى النوبة ، وكردفان ، وجنوب الخرطوم ، ودارفور لهجة واحدة لها مميزاتها الخاصة التى تميزها عن سائر اللهجات العربية .

لكن قبل أن أختم هذا البحث أحب أن أقول إن استقرار هذه القبائل العربية خارج الجزيرة لم ينسها يوما نجدا ، وجمال نجد ، وحرية نجد ، وقد عبر مرعى عن هذا الحب بقوله يخاطب سعدة بنت خليفة :

يا سعدة نجد العريضة مريه ... ربيت بها أهلى وكل جدود
بلدى ولو جارت علىا مريه ... وأهلى ولو شحت علىا تجود

سيرة عنترة

رأينا فى سيرة سيف بن ذى يزن عرضا جميلا للنزاع الذى قام بين الساميين والحاميين ، وبين العرب الجنوبيين والشماليين ، كما رأينا أيضا كيف أن بلاد العرب كانت إلى جانب القارة الأفريقية مسرحا هاما لتلك الحروب المتواصلة ، والتى كانت جاهلية حينا وإسلامية حينا آخر ، والتى انتهت بانتصار الساميين فى الجزيرة وتعادل الكفتين فى أفريقية . وعلمنا من حوادث هذه السيرة أيضا كيف بسط اليمنيون سلطانهم على بعض الأصقاع العربية الشمالية ، وقربوا بين العقليتين الجنوبية والشمالية ، ومهدوا لعملية التزاوج التى حدثت بين اللغتين العربيتين القحطانية والعدنانية فى الجاهلية ، كما ساهموا بنصيب وافر فى خلق اللغة العربية الأدبية التى سجل فيها العرب شعرهم الجاهلى ونثرهم غير الإسلامى واتخذها الوحى لسانه لتبليغ رسالته . وقلنا إن النقوش التى عثر عليها علماء اللغات السامية والمعلومات التى جاءتنا عن طريق رجال التاريخ وأصحاب السير تؤيد هذا . والآن نعرض لسيرة أخرى من أهم السير العربية أعنى سيرة عنترة بن شداد التى تعتبر بحق إلياذة الصحراء ؛ فشخصية بطلها ما زالت حية بيننا ، وما زال لفظ (عنتر) المثل الذى يضرب للشجاع ، كما اشتق الشعب منه كثيرا

من المفردات التى تتصل بهذا المعنى عن قرب أو بعد . فالشخص القوى يدعى (متعنتر) والحمل الثقيل الذى لا يقوى على حمله إلا من أوتى قوة عنتر هو (حمل متعنتر) ، ولباس النساء الذى يبرز ثدى المرأة ويقويه يسمى (عنترى) وأكبر مقبرة عرفتها أسيوط القديمة هى (اصطبل عنتر) .

شخصية عنترة إذاً من الشخصيات التى تغلغلت فى صميم الحياة العربية ، وهى الشخصية التى تتمثل فيها الرابطة السامية الحامية أجل تمثيل ، فنحن هنا لا نرى نزاعا بين هذين الفرعين بل نلمس صفاء ومودة وسلاما ، فأم عنترة (زبيبة) حامية وأبوه سامى ، ويفخر بطل القصة بنسبه هذا ويقول :

يقــدمه فتى من خير عبس أبوه ، وأمه من آل حام
عجــوز من بنى حام بن نوح كأن جبينها حجر المقــام

وهذه السيرة التى تشغل بضع آلاف من الصفحات المتوسطة الحجم تتحدث عن نجد بن هشام ، وجهينة اليمانى ، وأبى عبيدة ، والأصمعى ، وسعيد بن مالك ، وغيرهم أهملت أسماءهم كرواة لها ، والتى حفظ لنا التاريخ منها روايات بينها شىء يسير من الفروق ، ونسبت إلى الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والعراقية/سجل حافل لحوادث وقعت فى الجزيرة العربية والعالم الإسلامى فى الفترة الممتدة بين القرنين السادس والحادى عشر الميلاديين . ففى نجد قلب الجزيرة سكنت فى منتصف القرن السادس الميلادى بطون كثيرة

من قبيلة قيس عيلان ، كما نزل فى المنطقة الواقعة بين مكة ويثرب والحجاز وجبال طى بنو سليم وهوازن ، وشرق هوازن نجد بنى غطفان الذين حل من أفخاذهم بنو بغيض بين عبس وذبيان وكانت منازلهم الأولى الشربة الواقعة بين النقرة ومكة . وفى ذلك الوقت الذى تتحدث فيه السيرة كان زهير بن جذيمة قد بسط سلطانه على غطفان وما كاد يستقر له الأمر حتى نجد الغارات تلو الغارات بين العدنانيين والقحطانيين . وفى إحداها سبى العبسيون كثيرين من بنى جديلة وغلمانهم وجواريهم وعبيدهم وعددا كبيرا من جمالهم التى كانت ترعاها أمة حبشية تدعى (زبيبة) وهى أم بطل السيرة . ثم بعد أن ينتهى الحديث عن العدنانيين والقحطانيين نجد السيرة تنتقل بنا إلى أرض العراق إلى بلاد الحيرة حيث يدور قتال بين عنترة والنعمان بن المنذر ، وذلك لأن الفارس العبسى يريد مهر عبلة وهو ألف من النوق العصافير التى لا توجد إلا فى العراق وهنا نقرأ وصفا جميلا لبلاد العراق والعراقيين والعلاقات السياسية التى كانت تربطهم بالفرس . وكما أن السيرة وصلت بين نجد والعراق بمهر عبلة إذا بها هنا توقع عنترة فى الأسر ليتخذ المؤلف من ذلك قنطرة يعبر عليها إلى إيران ، ومن ثم ينتقل بنا إلى الدولة البيزنطية ويبسط لنا السياسة الفارسية تجاه الدولة الرومانية الشرقية ، وهو فى عرضه هذا لا ينسى العرب وموقفهم من هذا النزاع القائم بين كسرى وقيصر ، وهذه الخصومة التى اهتم بها القرآن الكريم وأشار إليها فى سورة الروم .

وفى الصحيفة الثانية والأربعين بعد المائة نرى الراوى يحدثنا عن الحرب التى قامت بين ملك الحيرة المنذر ملك العرب عبدة الأحجار وكسرى ملك الفرس عبدة النار وينتصر العرب بفضل عنترة الذى سجل بطولته فى قصيدته المشهورة التى مطلعها :

سلى يا ابنة العبسى رمحى وصـــارمى

وما فعـــلا فى يوم حرب الأعاجم

لـكن المنذر يعلم أن الفرس سيعاودون الـكرة وأدرك هو أن سلامته وسلامة بلاده تتطلب منه أن يكون جبهة قوية ضد العجم ، أعنى لا بد وأن ينـادى بوجوب تعاون العرب واتحادهم فى سبيل الوقوف فى وجه العدو الخارجى . وهنا نرى السيرة تحدثنا عن الدولة العربية حديثا لا يقل طرافة عن أحاديث اليوم ؛ ففى الصحيفة الثامنة والأربعين بعد المـائة نرى المنذر يخاطب عنترة ويقول : « ولـكن يا ولدى من الرأى أن أكتب إلى سائر القبائل وأجمع العرب من الأحياء والمناهل وأتأهب لحرب الملك كسرى فإنه لا بد أن يعـود إلينا ويسطو بعساكره علينا . وأول ما أرسل إلى قومك بنى عبس وعدنان وفزارة وذبيان وسائر بنى غطفان ، ولا أزال إلى أن أقيم دولة العرب وأذل عباد النار واللهب ... » لـكن بينما المنذر يعمل لجمع شمل العرب إذ بعمر بن نفيلة يظهر على المسرح كوزير المنذر ويعرض عليه خبر التوسط بينه وبين كسرى لإزالة أسباب النزاع ، ثم تقفز السيرة إلى القرن الحادى عشر الميلادى حيث الحروب الصليبية ،

وتحدثنا عن بطريق جبار وفارس من كبار الفرسان ، يدعى (بضرموت) الذى هو (بوهيمند Bohemund) والذى هزم سائر فرسان إيران ، ولم ينقذ كسرى منه إلا البطل العبسي عنترة . وبعد حفلات الوداع والتكريم نراه يعود إلى عبلة ومعه المهر والكثير من الهدايا ، لكن عمه مالك يرفض زواجه بها لأن السيرة تلح فى خلق خصوم لعنترة يشاطرونه حب عبلة والهيام بها وعنتره يكافح ضدهم بإخلاصه للعبسيين حينا ، وتفجيه عنهم وقت الملمات حينا آخر وفى ثنايا هذا النزاع بين الفارس وقبيلته نقرأ وصفا لمعركة نشبت بين بنى عامر تحت إمرة خالد بن جعفر والعبسيين بزعامة زهير ابن جذيمة الذى قتل فى هذه المعركة ونبا سيف ابنه ورقاء عندما هوى به على خالد يريد قتله وإنقاذ والده . وإلى هذه الحادثة أشار الفرزدق معرضا بأخوال سليمان بن عبد الملك :

إن يك سيف خان أو قدر أبى
وتأخير نفس حتفها غير شاهد
فسيف بنى عبس وقد ضربوا به
نبا بيدى ورقاء عن رأس خالد

ثم تعرض السيرة للغسانيين وتتحدث عنهم وعن النصرانية وتصل بينهم وبين نصارى نجران ثم تصف زواج عبلة بعنترة وتنتهز هذه الفرصة وتذكر لنا حلفاء العبسيين ومنهم العدنانى ومنهم

القحطانى . وبعد أن تفرغ من ذلك تواصل سرد أعمال عنترة فتخلع عليه ثوبا إسلاميا ، وتنسب إليه حرب النبي (صلعم) ليهود خيبر ، ثم تنتقل بنا من قبيلة إلى أخرى حتى نرى عنترة فى بلاط قيصر الذى وهبه جارية تدعى مريم والتى وضعت لعنترة ابنه (جوفران) والذى هو فى الواقع أحد فرسان الحروب الصليبيـة المسمى (جود فراى Godfrey) (أوائل القرن الحادى عشر) وتختم السيرة بالحديث عن الفتوحات الإسلامية ، وعن مصر وشمال إفريقية ، والأندلس .

والآن بعد هـذا العرض نوجه إلى أنفسنا السؤال الآتى ما هى حقيقة هذه السيرة وأين ومتى ألفت ؟ ليس من العسير الإجابة على هذا السؤال فالقارىء المثقف يستطيع أن يقرأها دون كبير عناء وأن يخرج منها بأنها عرض وعرض موفق للقبائل العربية وعاداتها ، لتقاليدهـا وحروبها فى تلك الفترة التى سبقت الإسلام أو مهدت لظهوره ، فهنا نرى العدنانية تنتصر على القحطانية بل وتخالف السنن والأوضاع المعروفـة عند العرب من قبل وتلحق بنسبها عنترة ابن الأمة الحبشية وتزوجه عبلة بنت مالك أحد سادة بنى عبس فتمحى بذلك الفوارق الجنسية وتحطم الحواجز القـائمة بين أفراد القبيلة الواحدة .

فإن عابوا سوادى عند ذكرى ... وجاروا من عناد فى ملامى
فلى قلب أشد من الرواسى ... ولونى مثل لون المسك نام
وما أسمو بلون الجلد يومـا ... ولـكن بالشجاعة والـكلام

وغير هذه المبادئ الجنسية التى تعترف بها السيرة ويقرها الإسلام نجد فيها الشىء الكثير من عادات العرب وأخلاقهم فى الحرب والسلم ، كما نعلم شيئاً عن تقسيم الغنائم وحظ الحر وحظ العبد منها ، ونقرأ بعض صيغ للقسم تدل على شىء كثير من الاعتزاز بالجنس العربى والخلق العربى كقولهم « وذمة العرب » التى استعمل الإسلام عوضا عنها (ذمة الله) . وإلى جانب كل هذه المعلومات يجد القارئ مئات من القصائد المنسوبة لعنترة وغيره من الشعراء والشواعر ، وكذلك بعض المقطوعات الخاصة بالندب ، والمعلقات ، وحتى قصيدة الأعشى التى مطلعها :

ودع هريرة أن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وغير الشعر نجد مناظرة لغوية بين عنترة وامرئ القيس نعرف من خلالها كثيرا من أسماء السيف والرمح والدروع والخيل والنوق والخمرة والحيات .

أما وطن السيرة فهو مصر بدليل التعبيرات المصرية ، فنحن نقرأ فيها مثل (فرحنا بسلامتك) و (ياخوى الحمد لله) و (لحد الآن) و (إكراما للعين تكرم ألف عين) إلى جانب ذكر مصر وبعض مدنها . عرفنا الآن موضوعات السيرة ووطنها . أما عصر تأليفها كما هى بين أيدينا الآن فيرجح أنه كان فى أواخر القرن الحادى عشر مع الإشارة إلى أن القصاص كثيرا ما غيروا فيها حذفا وإضافة كما يتضح لنا ذلك عند قراءة الفصول الخاصة بالحروب الصليبية .

قصصنا الشعبي المسرحي

محمد بن دانيال

إذا ذكر هذا الضرب من الأدب الشعبي التمثيلي ، وجب على الباحث قبل أن يعرض لهـذه الشخصية العظيمة فى تاريخ الأدب العربى المصرى أن يلقى نظرة عامة على هذا الفن الذى نبغ فيه المترجم له أعنى (خيال الظل) .

يرجع المتصدرون لدراسة هذا النوع من الأدب من المستشرقين الألمان ، وعلى رأسهم (جورج يعقوب) أن الوطن الأصلى لهـذا الفن هو بلاد الهند ، وأن أقدم نصوص عرضت له هى تلك التى تسمى فى الأدب السنسكريتى (تيره جاثا) أى « أغانى الراهبات » ، فقد جاء ضمنها حوار لطيف بين إحدى الراهبـات البوذيات وبين شخص يراودها عن نفسها ، وفى هذا الحوار يرد ذكر هذا النوع من التمثيل . فالراهبة تقول له : — إنك تندفع أيهـا الأعمى ، وتتكالب على لا شىء إنك تتهالك على شجرة ذهبية رأيتها فى حلم جميل إنك تجلس مع جموع الناس الغفيرة لمشاهـدة خيال الظل . ويذكر عالم فلكى هندى يسمى (اوراها مهيرا) عاش فى القرن السادس الميلادى فى كتابه (بركة سمعيتا) أن كسوفا سيقع للشمس ،

وأن هذا الكسوف سيسبب خسائر كبيرة لطبقات مختلفة من الناس منهم أصحاب (خيال الظل) .

وفى غير الهند وسيلان يستطيع العلماء تتبع انتشار هذا الفن فى جزائر جاوه ، وسيام ، وفى الصين . ويرجح هؤلاء الإخصائيون أنه عن طريق الصينيين جاء هذا الفن إلى العالم الإسلامى وذلك أن المؤرخ الفارسى رشيد الدين المتوفى عام ١٣٨٨ م يقول فى كتابه (جامع التواريخ) المحفوظ ضمن مخطوطات دار الكتب فى مدينة (ميونخ) وتحت رقم ٢٠٧ عندما عرض للحديث عن حاشية ابن جنكيزخان : إن لاعبين صينيين جاءوا وكانوا يلعبون خلف ستارة ألعابا عجيبة ، وكان من بين الشخوص شخص يمثل رجلا ذا لحية بيضاء على رأسه عمامة شد فى ذيل حصان . فسأل ابن جنكيزخان : من يمثل هذا الشخص ؟ فقيل له : أحد الثوار من المسلمين وهو يجلبه الجنود على هذه الصورة من المدن . فأمر بوقف اللعب ، وطلب إحضار بعض الحلى من الخزانة كما أمر أيضا بإحضار الكأس المطعم بالأحجار الكريمة ، والذى يستطيع الشخص شراءه من بغداد أو بخارى . كذلك الخيول العربية ، وبعض حلى العرب وجواهرهم الثمينة ، وبعض أدوات الزينة الفاخرة . كما أمر بإحضار ما يقابلها من المصنوعات الصينية الفنية . فلما أحضرت الأخيرة وقارنها بالعربية ظهر الفرق الشاسع ثم قال : — أفقر عربى يملك الكثيرين من المماليك الصينيين بينما لا يملك أحد كبار موظفى الصين أسيرا مسلما

واحدا . وقد يكون هذا لحكمة شاءها الله أراد بها أن يختبر مرتبة الشعوب كما قدرت فدية المسلم لجنكيزخان بأربعين قطعة من الذهب بينما فدية الصينى أذن طويلة (حمار) ، فكيف يستطيع إنسان رغم هذه الأدلة أن يحتقر الشعوب الإسلامية ! وبعد ذلك عفا عنهم على ألا يعودوا لمثل هذا العمل ثانيا . فمن هذه القصة التى يرويها صاحب جامع التواريخ يستشهد العلماء على العلاقة الكائنة بين الفنين الصينى والإسلامى من ناحية وعلى انتقال (خيال الظل) إلى المسلمين من ناحية أخرى .

ولعل أقدم إشارة فى الأدب العربى إلى هذا الفن حسب رواية صاحب كتاب فوات الوفيات (الجزء الأول ص ٢٤٨ طبع بولاق عام ١٢٨٣ هـ) هى تلك التى جاءت فى الأبيات الثلاثة المنسوبة لوجيه الدين ضياء بن عبد الكريم الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، والتى ذكرها الأبشيهى فى المستطرف (باب فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها) وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال .

رأيت خيال الظل أعظم عبرة ... لمن كان فى علم الحقائق راقى
شخوصاً وأصواتا يخالف بعضها ... بعضاً وأشكالا بغير وفاق
تجىء وتمضى بابة بعد بابة ... وتفنى جميعا والمحرك باقى

ولم يقتصر ذكر هذا الفن المسرحى على (فوات الوفيات) و (المستطرف) بل هناك كثير من المصادر العربية خاصة تلك التى

عنيت بعصر تاريخها وأدبها كابن إياس والمقريزى التى تحدثت عنه حديثا فياضا ، ولا سيما بعد أن أصبح هذا الفن حرفة مصرية ، فابن إياس يذكر فى تاريخه أنه فى عام ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م .) رسم (جقمق) السلطان بحرق شخوص خيال الظل جميعها ، وفى موضع آخر يقول ابن إياس : — أشيع أن السلطان سليم شاه لما كان بالقياس أحضر فى بعض الليالى خيال الظل فلما جلس للفرجة قيل إن المخايل صنع صفة باب زويلة وصفة السلطان طومان باى لما شنق عليها ، وقطع به الحبل مرتين فانشرح ابن عثمان لذلك وأنعم على المخايل فى تلك الليلة بثمانين دينارا ، وخلع عليه قفطانا مخملا بالذهب وقال له : — إذا سافرنا إلى استنبول فامض معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك : ويرجح أن هـذا هو أول عهد الأتراك بخيال الظل كما أن ذلك العصر كان فاتحة دخول هـذا الفن فى أوربا عن طريق تونس وايطاليا ، ألمانيا وفرنسا .

من كلام ابن إياس يفهم أن هـذا الفن أصبح فى مصر حرفة وأصبح فى استطاعة الخيال أن يعبر به عن الأحداث التاريخية لكن ليس معنى هـذا أن عهد المسرح المصرى به يرجع إلى ذلك العهد فلدينا بعض المسرحيات المصرية التى يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر الميلادى مثل لعب حرب السودان ، ولعب حرب العجم ، ولعب المركب ، ولعب الدير . وأخرى وضعت فى القرن الثالث عشر وهى تعتبر أحسن ما كتب فى هـذا الفن أعنى فى القصص العربى

المصرى وهى طيف الخيال ، وعجيب وغريب ، ومتيم ، وكلها من وضع الأديب المسرحى الشيخ شمس الدين بن عبد الله محمد بن دانيال ابن عبد الله الخزاعى المتوفى سنة عشر (أو إحدى عشرة) وسبعمائة هـ (١٣١١) م وكان طبيبا مصريا للعيون وشاعرا من أهم الشعراء الذين عرفتهم الكنانة فى ذلك العصر . ومن شعره فى حرفته :

ياسائلى عن حرفتى فى الورى وضيمتى فيهم وإفلاسى
ما حال من درهم أنفاقه يأخذه من أعين الناس

أما مسرحياته فكلها هزلية ، وهى من مخلفات العصور الوسطى . وقد وضعها أيام الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م .) ويرجح أنها ألفت مباشرة بعد عام ١٢٦٧ م كما يتضح لنا ذلك من مقدمة المسرحية الأولى المعروفة بطيف الخيال . أما اللغة التى استخدمها ابن دانيال فى تواليفه هذه فهى الشعر والنثر المسجع ، ومن حسن الحظ أن المواضيع التى تناولها يتفق معظمها والأحداث التى يعرضها لنا أحد مؤرخى ذلك العصر كابن إياس أو المقريزى فى طيف الخيال نجد المؤلف يعرض لعصره فيصوره لنا فى المقدمة تصويرا يتفق مع ما ذكره ابن إياس عندما عرض للحديث عن سنة خمس وستين وستمائة . فابن دانيال يقول : — لما قدمت من الموصل إلى الديار المصرية فى الدولة الظاهرية سقى الله من سحب الانعام عهدها ، وأعذب مشارب وردها ، فوجدت مواطن الأنس دارسة ، وأرباب اللهو والخلاعة غير آنسة ، ومن لذة العيش آيسة . وهزم

أمر السلطان جيش الشيطان ، وتولى الخوان والى القاهرة إهراق الخمور ، وإحراق الحشيش ، وتبديد المزور ، واستتاب العلوق واللواطى ، وحجر البغاة والخواطى ، وشاعت بذلك الأخبار ، ووقع الإنكار ، واختفى المسطول فى الدار ، وقد آذى الخلاعة غاية الأذية وصلب ابن الكازرونى وفى رقبته نباذية[1] . فدعانى بعض أصدقائى إلى محله وأنزلنى من عياله وأهله واعتذر إلىّ عن تقصيره فى الإكرام إذ لم يأتنى بمدام وقال : قد غلب على ظنى أن ابا مرة (الشيطان) قد مات وعدم من الرفات فقم بنا نبكيه ، ونصف الحالة ونرثيه ، فابتدأت وقلت فى معنى هذه الواقعة التى وقعت :

مات ياقوم شيخنا إبليس ... وخلا منه ربعه المأنوس
ونعانى حدسى به إذ توفى ... ولعمرى مماته محدوس
هو لم يكن كما قلت ميتا ... لم يغير لأمره ناموس

ومن ثم نرى الشاعر يستمر فى تصوير إبليس وما حل بأنصاره وأعوانه من الخمارين والحشاشين ثم ينتقل إلى الخليعين والخليعات فيقول :

وفتى قائل لقد هان عندى ... بعد هذا فى شربها التجريس
كم خليع يقول ذا اليوم يوم ... مثل ما قيل قطرير عبوس
وقضيب ونرجس وسعاد ... يا كيات وزينب وعروس
ذى تنادى حريفها لوداع ... لا عناق لا ضم لا تبويس

---

(١) وفى صلبه يقول ابن دانيال

لقد كان حد السكر من قبل صلبه ... خفيف الأذى إذ كان فى شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبى ... ألا تب فإن الحد قد جاوز الحدا

وهكذا نرى الأفق يتسع أمام الشاعر فيحلق فيه ويسجل لنا حياة اللهو والفجور فى تلك العصور تصويرا دقيقا رائعا ثم يختم قصيدته بقوله :

إرحلوا هـذه بلاد عفاف وسعود الخلاع فيها نحوس
من لنا بعد ذلك الشيخ إلف وسمـير ومؤنس وأنيس
لا ترى فتى ضاحك السـ ـن وكل يبـدو له تعبيس

وحدث آخر من الأحداث التاريخية التى وقعت أيام الظاهر بيبرس ونجد صداها عند ابن دانيال هو وصول الإمام أبى العباس أحمد بن الخليفة الظاهر العباسى من بغداد واحتفاء السلطان به كما هو مدون فى المقريزى (الجزء الرابع ص ٩٤ وما بعدها طبع المليجى) فقد تناول شاعرنا هذا الموضوع وخلعه على شخصية من شخصيات مسرحية أسماها (الأمير وصال) يقدمهـا للنظارة بعد مرثيته لأبى مرة . فطيف الخيال ينادى : (يا أمير وصال) . فيدخل جندى عليه شربوش (يروى المقريزى أنه يشبه تاجا مثلث الأضلاع ويلبس دون عمامة) ويقدم نفسه كالأمير وصال ، ويتحدث عن نفسه وخصاله فهو كالأفعى ، ويلوط أكثر من أبى نواس ، ويصفع أقلاما أكثر من الخباز ، ويفترس أكثر من النار ، ويشرب أكثر من الرمل ، وأنه أظهر من كوكب ، وأدور من لولب . فيمدحه طيف الخيال ويقول له ما معناه من يترك من الآثار مثل ما ترك لن يموت أبدا ثم يلتفت الأمير وصال بعد أن مدح الأيام الخالية وخاطب

طيف الخيال مكلفا إياه إخبار كاتب سره (التاج بابوج) . فيظهر (التاج بابوج) ويقبل يد الأمير فيكلفه إحضار مكتوب خاص فينادى (التاج بابوج) : سركيس أحضر حافظة الورق وحافظة النقود فيحضرها العبد فيقرأ (بابوج) بأمر طيف الخيال تقليدا وفيه يعين (وصال المحبة) ملكا على المجانين ويمتد ملكه فيشمل خرائب وأكوام مصر العتيقة ، والأهرام ، وما جاورها من تلال ومقابر . وبعد ذلك يقول طيف الخيال : ياشيخ بابوج أين نسخة من القصيدة التى وضعها الشاعر (صر بعر)[1] ؟ فيخرجها التاج بابوج من عيبة ، وينشدها فنجد أن الأمير وصال يريد الزواج فيستدعى قوادة معروفة تسمى (أم رشيد) فتخبره عن فتاة ، ويرضى بها فيحضر العاقد (المأذون) ويقرأ خطبة النكاح ، ويتم العقد . ويتضح بعد ذلك أن الأمير وصالا فقير — مال المال ، وحال الحال ، وذهب الذهب ، وفضت الفضة ، وسلب السلب — وفى ليلة الزفاف تبين للامير قبح العروس فغضب وهاج وحد الدبوس وضرب المواشط والعروس وهدد زوج أم رشيد (الشيخ عفلق) بالضرب . ثم يلتفت طيف الخيال إلى الشيخ عفلق ويقول إننا نحتاج إلى الطبيب (يقطينوس) لأنه فى رأينا لا يقل عن جالينوس ثم يتكلم الأمير وصال مع طيف الخيال

(١) هو والد الشاعر — صردر — الذى توفى فى القرن الخامس الهجرى وقد هجاه البياضى ببيتين هما :

لئن لقب الناس قدما أباك ... وسموه من شحه « صر بعرا »
فانك تنثر ما « صره » ... عقوقا له وتسميه شعرا

ويخبره أنه لم يبق إلا السفر للحجاز لكى يغسل ذنوبه بماء زمزم ويزور مقام ابراهيم وروضة محمد فيختفيا من المسرح .

وبذلك تنتهى الرواية أو البابة بلغة ذلك العصر . لكن قبل أن أختم الحديث عن هذه الرواية وأنتقل إلى غيرها من وضع ابن دانيال أيضا أقرر أنه من حسن حظ العالم أنه يملك منها ما لا يقل عن ثلاث مخطوطات فى مصر ، واستنبول ، والاسكوريال . فهذه المسرحيات تشهد حقا للشاعر بالعبقرية ووفرة الثروة اللغوية إلى جانب تبريزه فى فنى العرض والتمثيل . فابن دانيال يضع أغانى مسرحياته وألحانها ، ويفرض على المخرج للشخوص طريقة العرض وكيفية الأداء . ففى مقدمته لرواية (طيف الخيال) نراه بعد البسملة يحدثنا عن الواعز إليه فى هذا التأليف فيقول : — كتبت إلىّ أيها الأستاذ البديع ، والماجن الخليع لا زال سترك رفيعا ، وحجابك منيعا تذكر أن (خيال الظل) قد مجته الأسماع ونبت عنه لتكراره الطباع ، وسألتنى أن أصنف لك من هذا النمط ما يكون بديعا من أشخاص السقط ، فصدنى الحياء فيما رمته منى أن ترويه عنى . ولكن رأيت تمنى من هذا المرام يوهمك أنى قاصر عن هذا الاهتمام ، واهن الفكرة عاجز الفطرة عن غزارة الينبوع وأجابة الخاطر المطبوع فجلت فى ميدان خلاعتى وأجبت سؤلك لساعتى وصنفت لك من بابات المجون والأدب العالى لا الدون ما إذا رسمت شخوصه ، وبوبت مقصوصه ، وخلوت بالجمع ، وجلوت ، الستارة بالشمع

رأيت بديع المثال يفوق بالحقيقة ذلك الخيال فإذا دعيت إلى مجلس السرور فاخرج طيف الخيال مكان القور (فتحات مستديرة فى الستارة) واستبد بالنشيد وغن فى راست بهذا القصيد . وبعد أن ذكر المؤلف النشيد تراه ينتقل إلى (الريس) فيقول له : فإذا فرغ الريس من هـذا الإنشاد ويشرع فيما بنى وشاد ثم ينادى ياطيف الخيال يا كامل الاعتدال ، فيخرج شخص أحدب وينقض كالبازى الأشهب ، فيسلم سلام القادم ، ويقف مطرقا كالواجم ، فيرد الرئيس عليه السلام ، ويتلقاه بهذا المديح قبل الكلام .

وهنا نرى ابن دانيال يتمدح بالأحدب والحدبان ويتغنى بهم وبخصالهم وهو يجمع فى هذه القصيدة بين الهزل والجد فمنها قوله :

أم هل يزين المتن إلا ردفه ... حسنا فكيف بمن له ردفان

والعود أحدب وهو ألهى مطرب ... ولقد سمعت بنعمة العيدان

وكذا سفين البحر لولا حدبة ... فى ظهره لم يقو للطوفان

ومدبر الاكسير يدعى أحدبا ... فى علمه والقسط بالميزان

وإذا اكتسى الإنسان قيل تمثلا ... بالمدح قامت حدبة الإنسان

وبعد أن يفرغ الريس من هـذا النشيد يأخذ فى عرض شخوصه .

عجيب وغريب

وهذه قصة أخرى لابن دانيال ، ولا صلة لها بتلك التى سبق لى أن عرضتها من قبل وسيرى القارئ كيف أن المؤلف سلك فى وضعها مسلكا عجيبا فى عالم التأليف وغريبا فى هذا النوع من التصنيف . فهو لا يكتب مسرحية متصلة الأبواب بل يهجم على الحياة المصرية الشعبية فى ذلك العصر ويصورها لنا تصويرا فريدا فى نوعه أقرب إلى الصور الناطقة منه إلى شىء آخر فيسدى بذلك خدمات جليلة للمؤرخ والأديب لأنه يبرز له ناحية من نواحى حياة الشعب قلما يقع نظره عليها فى الكتب التاريخية ، وقد تكون هذه الناحية مصدرا من أجل المصادر لفهم حياة الأمة فهما لا غبار عليه ، وللأديب الذى يقرأ على لسان أشخاص من عامة الشعب اللغة الدارجة والمعانى المتداولة فى أسلوب عربى رصين . فابن دانيال تناول كل تلك المعانى الشعبية وعبر عنها بألفاظ مقدودة مفصلة تنم عن غزارة مادته اللغوية وثروته الأدبية وقد تناول فى « عجيب وغريب » وصف الحياة المصرية فى الأسواق ، فقدم لنا أشخاصا يمثل كل شخص منهم جالية من الجاليات التى استوطنت مصر ، أو حرفة من الحرف أو مهنة من المهن فيعرض لنا سبعة وعشرين شخصا منهم غريب الساسانى ، وعجيب الواعظ ، وحويش الحاوى ،

وعسيلة المعاجيني ، ونباتة العشاب ، ومقدام الآسى صاحب المباضع والمواسى ، وحسون الموزون ، وشمعون المشعبذ ، وهلال المنجم ، وعواده الشرماط ، وشبل السباع ، ومبارك الفيال ، وأبو العجب ، والصانعة ، وأبو القطط ، وزغبر الكلبي ، وناتو السودانى . وتتبين رأى ابن دانيال وغايته من بابته هذه من مقدمته إذ يقول : قد أجبت سؤالك أيها الأستاذ الظريف ، والماجن اللطيف ثانية لكى لا تظن همتى فى الأدب متوانية ، وأتيتك بغريب ، وألحقتك بعجيب ، وهذه البابة تتضمن أحوال الغرباء والمحتالين من الأدباء الآخذين بذلك الشأن المتكلمين بلغة الشيخ ساسان . فمتى دعيت إلى مجلس الإيناس فأبدأ عند جلاء الستارة بمدح من حضر من الناس ، وغن بإتقان فى عراق . ثم ينشد نشيدا مرحبا بالحضور يخرج بعده شخص ويقول أين تلك الأيام وطيبها ، وحسن تلك الأوقات وأعاجيبها فرحم الله شيخنا ساسان ، فلقد كان انسان عين كل انسان قدوة الأدباء وأنيس الغرباء ، فجمع الله كل محب بسكنه ، ورد كل غريب إلى وطنه ، وينشد بعد ذلك قصيدة يصور لنا فيها أخلاق الساسانيين وعاداتهم تصويرا صادقا جميلا فهو بعد أن يشير إلى ماضيهم الزاهر بقوله :

أين زمانى الذى تقضى وأين جاهى وأين مالى
وأين خفى وطيلسانى وأين قيلى وأين قالى
وأين عيشى وأين طيشى وأين حسنى وحسن حالى

يصف فسقهم وفجورهم ومجالسهم وحاناتهم فهم كما يقول :

قد درسوا الفسق من قديم فكم لهم فيه من جدال
ونحن في مجلس بديع جل عن الوصف والمثال
فالدف دفدف ددف ددفدف والزمر تلتل تلل تلالى
والجنك تنتن تتن تتنتن تصلحه ربة الحجال

وبعد أن فرغ ابن دانيال من هذه القصيدة عرض لفقرهم وتسولهم ، وذلك لأنه لما لم يبق من يستمطر وابله ، ولا من يرجى نايله رأينا الحيلة عليهم ، ولا الحاجة إليهم ، فتركنا العمل وملنا إلى الراحة والكسل ، وانفردنا بتدبير الحيل ... فطورا أدعى معرفة الكيمياء وآونة علم السيميا ووقتا بالعزايم والتغوير ، ووقتا أكتب على الشقف لذهاب ماء البير ... ثم ينشد بعد ذلك قصيدة يخرج بعدها عجيب الدين الواعظ ، ويقول : يا عنبر أطلب المقرئين والمنبر . فيحضر المنبر ويرقاه ، ويستفتح بعد البسملة بما يقراه يقول : ... سيروا في البلاد وانصبوا الشباك على العباد ، فالغريب مرحوم ، والمرء يسعى والرزق مقسوم . واعلموا أنتم وفقكم الله أن الفلس يجمع الدينار ، والصدقة بالحبة هينة على ذوى الأقدار ، وكسرة الثقيف بنت الرغيف ، والمرقع شعار الصالحين ، والتغرب من عادات السايحين ، واركبوا غوارب الإلحاح والبسوا دروع الوجوه الوقاح ، وتعاموا مبصرين ، وتطارشوا سامعين ، وتعارجوا فالسبق لذى العرج ، وتخارسوا فإن الخرس لسان الفرج ، وركبوا

على جلودكم الجلود المسلوخة ، واشربوا نقيع التين لتصبح وجوهكم مصفرة وبطونكم منفوخة ، وأخترقوا الصفوف فى الجوامع ، ولجوا على الأخشان بالطلب فى الشوارع ، ولتكن أفخر ملابسكم الاسمال ، وأكبرهمكم جمع المال وسيروا بهاتين تأمنوا الإفلاس والدين ، فصحة العين بإنسانها وصحة الإنسان بالعين . وبعد ذلك ينشد نشيدا ويختم حديثه بنثر مسجع وينصرف ـ فيظهر حويش الحاوى فيعرض ثعابينه وأنواعها وخواص كل واحدة منها ، وبعد أن يفرغ من ذلك يرفع حق الدرياق على يديه ويفتحه ويشير إليه ، ويتحدث عنه وعن تركيبه ثم ينصرف ، ويخرج عسيلة المعاجينى ويرفع على يده حقا من الأحقاق وينشد فى عراق :

يا من يذوق لتجريب معاجينى ومن يسلواه فى سر يناجينى
عنـــدى ذخائر أصناف مجربة خبأتها فى مصونات الأجاجين

ثم يقول . أين هو صاحب الحمضة فى معدته ، والحصى فى كليته ؟ أين المحبس عن حلاله و... وبعد أن يعرض لسائر الأمراض وما أعده لها من معاجين يختم حديثه بقوله . فاغتنموا رحمكم الله هذه المنافع بثمن تمرة أو خيارة مرة واقبلوها منى بهنا قبل أن تقولوا كان هنا . ثم ينصرف ويدخل نباتة العشاب فيعرض ما عنده ، فهو خليفة (ديسقوريدس) وسبط ابن البيطار العارف بالأصول ، والفروع ، والأوراق ، والأزهار ، فيعرض ما عنده من أصول وبزور وصموغ وعصارات وزهور عرض العالم النباتى والطبيب الفنى

فما من حشيشة فى الأرض نابتة إلا ولها فى الجسد علة ثابتة . وبعد أن يفرغ من الحديث عن هـذا العلاج النباتى يتحدث عن نبت المندغورة ذات الفوائد المشهورة فالحبة تقلب البغضاء محبة ، وقيمة الذرة منها درة أين الذى جفاه معشوقه أو غضب مولاه أو صديقـه دلوا على من غضب السلطان عليه أو تخبطه الشيطان ارشدوا إلى من ضعفت قواه ... وبعد أن يعدد كل فوائد النبات والأعشاب يودع الحضور بشعر جميل فى الحشائش وفوائدها ثم ينصرف فيخرج عواد الشرماط الذى يضرب المرآة وينظر فى المنـدل ويشير إلى الـكف ويكتب التعـاويذ وينشد شعرا يصف به فائدة العزائم والرقى والتمائم والأحرار :

ومن فضله أن العدو إذا بدا ... لحامـــله أمسى به متأخرا
يلوح عظيما فى النفوس معظما ... عزيزا مهيبا فى النفوس موقرا
وذات نزيف بالدماء رأت به ... عيانا وقد فاضت من الدم أبحرا
وأرملة عطل من الزوج قد غدا ... به أمرها للخاطبين ميسرا

وبعد أن يفرغ من شعره يقول : اعلموا رحمكم الله أن أسماء الله تعالى دروع وليس معها تروع فيخرج شخص صغـير من أولاده ويسقط كالمصروع ، فيتجاهل عنـه والصبى قد أزبد وتغرغرت عيناه بالدموع فيقول له الريس علىّ : هـذا وقت تعاتك ورقاك ، وعزاعك ، فيقول : أجل ، ويدنو منه ويقول : الوحا الوحا العجل العجل ، ويحمل حرزا من تلك الحروز بيمينه ، ويضعه للصبى فوق

جبينه ويقول أقسمت عليكم معاشر الجن والشياطين والأبالسة المتمردين من جنود الشيخ أبى مرة اللعين إن كنتم من اليهود الناقضين للعهود فياهيا شراهيا (فى العبرية اهيا أشر اهيا رمز إلى الله) وإن كنتم من النصارى فبالذى ركب الحمار ، وشد الزنار ، وعمل من الطين كهيئة الأطيار ، ونفخ فيه فطار ، وإن كنتم مجوسا فبالنار والنور ، والظل ، والحرور ، وإن كنتم مسلمين فبحق الكتاب المبين ، وبفضل بركات طه ويس ، أجيبوا عزائمى ، واخضعوا لتمائمى لاسماء تظلكم ولا أرض تقلكم بالذى أمر البرق لمع والنجم طلع أى هذا الجان اللابس هذا الإنسان أخرج من الأعلة وأدخل هذه الكحلة ، فيعطس الصبي ويقول : يا حكيم دخل كله وما بقى إلا أقله ، فيزجره (فيتوج ميتطرون) ويغنى من حضر من الزبون ويقول : سد رأس الكحلة بشمعة وادفنها فى هذه البقعة ، فيفيق الصبى ويقعد ويترنم .

جمال وجهى يسبى بحسنه كل جنس
بحسن خلق وخلق ولطف ودى وأنسى
قد صرت أدعى حبيبا لكل جنى وإنسى

وينصرف فيخرج شبل السباع ومعه الأسد والأتباع فيتحدث عن فنه حديثا لا يقل روعة وجمالا عن أحاديث السابقين ، ثم ينصرف ويخرج مبارك الفيال ويقول :

أنظر إلى الفيل فى تهويل خلقته

واعجب لإتقان صنع الخالق البارى

كقبة بنيت عمدا على عمد ... وقيرت ظاهرا بالزفت والقارى

بل كالسفينة فى يم قد انقلبت ... وقد رمى ظهرها رام ببتار

تخال من ورق القلقاس قد نبتت ... أذناه حين تراه عاديا سارى

ثم يولى الفيل مطرقا لنفسه بتلك الزلومة والصبيان يصيحون من خلفه : حالومه زلومه ، وتظهر بعد ذلك الصانعة بالمشارط والكاسات ، وترفع صوتها وتقول : الصانعة يا بنات . وتأخذ فى إنشاد نشيد تعدد فيه أعمالها وشهرتها وعرام الرجال والبنات بها ثم تنصرف فيتقدم أبو القطط والفار فى السفط ويشير إلى هرة ثم بعد أن ينشد نشيداً يقول : اصعد يا نمير إلى الطارة ، واحذر أن تمض فارة ، وأخرج له أنت يا سمور المذنب ، واتبعه أنت يا سنان الأشهب ، وخذ أنت الفروة الحمرا ، وأنت الفروة الصفرا ، وأنت يا سمان الغيط ، وألحقه يا سنجاب فى الحيط ، وقف أنت ياطليق على ظهره وعضه يا أبا الجرذان فى ظهره ، فتتمثل الحيوانات ما أمر ثم يقول : من جاد علينا بالانثار لا ابتلاه الله بأذى الفار ، وينصرف فيأتى زغبر الكلبى وأصحابه ، وجراه وكلابه ، ويقعد وينشد :

تعلمت أخلاق هذى الكلاب ... ومن لى بأمثالها فى صحابى

وفاء وصبر وحفظ الذمام ... وذب عن الحيل عند الضراب

وتسهر إن نمت فى قفرة ... وتحرسنى من ضوارى الذئاب

كلاب ولكنها فضلت على بعض قوم مشوا بالثياب

ثم بعد حديث طويل ينصرف ويأتى غيره . ولعل من أحسن شخصيات ابن دانيال التى عرضها هى شخصية (ناتو) السودانى إذ نرى شخصا يظهر بدبدابه وطرطوره وذرائبه ، ويهز المزاريق ، ويكر مقبلا فى الطريق ومدبرا ، ويبلق عينيه ويفتح بأصابعه شدقيه ويهملج كالبغل ، ويرقص ويغنى على إيقاع الطبل وينشد :

ناتو ناتو ناتو يا ناتو ناتو

غزلان السودان لولا الصبيان غيره ما ماتوا

ناتو يا ناتو يا ناتو ناتو

دعنا نتمزر ، نكرع ونسكر ، يا مهتار عنبر فى كبدى هاتوا

ناتو يا ناتو يا ناتو ناتو

لولا ذى الأمزار مع سمان الفار ما أصبح مختار يهوى ستاته

ناتو يا ناتو يا ناتو ناتو

سمرا محبوبه ، حمرا كالطوبه ، من خلا النوبه يا ماذا فاتوا

ثم يوالى الإنشاد ، فيذكر الطبطاب ، والشرب بالقادوس ، وغناء جاموس ، وبعد أن يفرغ ينصرف ويأخذ ابن دانيال فى عرض باقى شخصياته عرضا وفق فيه توفيقا عظيما .

وقبل أن نختم الحديث عن بابة « عجيب وغريب » نحب أن نشير إلى أن ابن دانيال أطلق على شخصياته التى عرضها أسماء تتفق ومهنها فعجيب من عجيب الدين الواعظ وكان من مشاهير الوعاظ فى ذلك

العصر ، وغريب لفظ استعمل فى غير معناه فأطلق على الفرس كما نطلق نحن الآن لفظ (حلب) على الفجر أو كما نستعمل لفظ (برمك) فى غير ما وضع له . كما أطلق المؤلف أيضا اسم نباتة على العشاب ، وهلال على النجم ، وشبل على السباع ، وميمون على القراد الخ . ولم يكتف بهذا العرض الجميل لأسحاب تلك الحرف بل نراه يجمع كل لغة الأسواق ويقابلها بلغة العلماء ، فى قصيدة تربو على الأربعين بيتا جاء فيها :

ولكنى رأيت العلم زينا ... فعدت إلى المدارس والجدال
وتهت فصرت فى الفقهاء أقضى ... وأفتى فى الحرام وفى الحلال
ونظم الشعر صرت به فريدا ... وطلت به على السبع الطوال
وقطعت العروض بفاعلات ... بأوتاد وأسباب ثقال
وعلم النحو فيه النصب فتى ... على من كان ذا جاه ومال
وطببت الأنام فكم أناس ... قتلتهم بقبض وانسهال

وبعد أن تحدث عن طبه وفلسفته رجع فقال :

وعدت إلى المقابر رب وعظ ... ومقرى على الرمم البوالى
وألقيت الحياء وراء ظهرى ... ولم يخطر ببالى أن أبالى

المتيم

وهذه هى البابة الثالثة من بابات ابن دانيال التى عرضنا للحديث عنها فيما سبق ، أولاها (طيف الخيال) وثانيتها (عجيب وغريب) وثالثتها هى هـذه المسرحية التى تختلف فى موضوعها عن البابتين السابقتين اختلافا عجيبا ، وإن اتفقت معهما فى الأسلوب والهزل .

فمن جهة الموضوع فهنا نقرأ شيئاً عن الحب وحيل المحبين لـكنه حب ليس من ذلك النوع الذى نجده عند مجنون ليلى ، وقيس لبنى ، وكثير عزة ، وجميل بثينة ، ومرقش أسماء ، وكثيرين وكثيرات ممن تزدحم بهم كتب الأدب العربى بل حب نواسى . وشعر ابن دانيال ليس أيضا من نوع الشعر الذى نقرؤه للغزلين من شعراء العربية كابن أذينة ، وابن أبى ربيعة ، وابن ذريح ، وقيس بن الحطيم ، وسويد بن أبى كاهل ، والعرجى ، بل شعر قصد منه إلى جانب التمثيل والغناء اللهو والمرح . فهو شعر غنائى تمثيلى هزلى ، ووضع لمسرح خاص وهو مسرح (خيال الظل) المصرى ، وصيغ فى أوزان خاصة يتفق تقطيعها وألحان المسرحية الموسيقيـة . ثم لا يفوتنا أن ابن دانيال ألف هذه القطع فى مصر ، وعرضت على المصريين ، لذلك عنى

فى شعرها ونثرها بأن يكونا مصريين . وحيل (المتيم) ليست كتلك التى نقرؤها فى المؤلفات التى أفردت للحب وأهله ، وحيلهم ونوادرهم ، بل هى حيل مصرية ؛ فنرى مثلا نقار الديكة ، وتناطح الخراف ، وما إلى الديكة والخراف من طيور وحيوانات كانت وما زالت إلى اليوم موضع لهو ورياضة بعض المصريين فى كثير من القرى والأرياف . وقد أشار المؤلف إلى ذلك فى مقدمته التى يقول فيها بعد البسملة : قد أجبت أيها الأستاذ المعلم والمطبوع المترجم سؤالك الثالث وخضت معك خوض الحادث وارتجلت لك هذه البابة كرما بالإجابة وهى بابة المتيم والضائع اليتيم وضمنتها طرفاً من أحوال المحبين وطرفاً من الغزل الذى هو السحر المبين ، وطرفا من اللاعيب ، وطرفا من المجون الذى ما عيب ؛ فإذا ما دعيت إلى صدر من صدور الزمان فاجل الستارة وغن فى أصبهان .

قل لسادات الزمان لا برحتم فى أمان
وبقيتم فى نعيم ما تبقى الهرمان

ثم يأخذ ابن دانيال بعد ذلك فى عرض شخوصه ، فيخرج شخص هيجه الغرام فيبكى بانتحاب ، وينشد متأرها نشيدا يصف فيه حاله ، وما انتابه من سقم وأرق جاء فيه :

أهل الغرام تجمعوا وتوسلوا وتضرعوا
موتوا تعيشوا فى الهوى وتمزقوا وتقطعوا
وخذوا حديث متيم عمن سواه أو دعوا

صب سماء دموعه من صبها لا تقلع
لم يبق إلا أضلع من سقمه تتقعقع
وادى العقيق بجفنه والدمع منه ينبع

ثم يقول : واه واه ، واحباه ، واقلباه . المتيم مسكين ذمم بغير سكين ، من أرسل ناظره أتعب خاطره والعاشق كل شيء يذكره ، لمعان البرق يؤرقه ، وهبوب الريح يقلقه ، وإذا دنا الليل منه يهرب النوم عنه ، ثم يتوح ويعدد فى رهاوى ويقول :

هكذا كل أخى وجد يكون أم أنا وحدى لى هذا الجنون
من معينى ومعينى أدمع وعيون الصب فى الصب معين

وبعد أن يفرغ من نواحه يقول : أيها السادة مسيتم بالسعادة ، ولا بليتم بعشق متذلل وإفلاس عاشق متململ . عبدكم المتيم الهائم فى الصائع اليتيم الذى فتن الألباب وغلق على الملاح الباب . ذو القوام الأهيف ، والخصر المخطف ، والطرف الأدعج الأوطف[1] ، والردف المردف ، والجبين الأبلج ، والثغر المفلج . الذى خده الورد وعذاره البنفسج الكامل الأوصاف القليل الإنصاف ... ثم ينشد موشحا يردفه بقوله إنه هو الموصلى لايدق إلا أبواب الكبار ، فيخرج شخص دميم ، ويقول غلامكم القديم ، ويضرط من فمه بصفير ويتبع تصفيقه بشخير ، ويقول : يا متيم خانك الاعتقاد وتبدلت باليأس شوك القتاد ، وعرضت عرضك لمعترض وتداويت بمهترض[2] ... وبعد

(١) وطف الرجل كثر شعر حاجبيه وعينيه .
(٢) الهرض الحصف الذى يظهر على الجلد .

ذلك ينشد شعرا فى محاسن الصغير على الكبير ثم فى الختام يقول : ألا يزدرد الإنسان الصغير ولا يزدرد الكبير ؟ فيقول له المتيم : فض الله فاك ، ولا سلمك ولا كفاك ... أين الهلال من قمر الابدار ؟ وأين الرمان من الجلنار ؟ وهل يفضل البلح على التمر ؟ أو الحصرم بلذة الخمر ؟ ... وبعد ذلك يظهر خادم المعشوق واسمه (بابا بيرم) ومعه رسالة إلى المتيم، وكان قد سبق أن مدح (بابا بيرم) المتيم لدى المعشوق فبين له خصاله الجيدة ، ونوع الحيوانات التى لديه ، وحبه للرياضة ، ففرح المعشوق وكتب للمتيم بذلك . فسر المتيم سرورا عظيما ورقص فرحا وأحضر الخمر والكاس وغنى حتى جلب المعشوق فغنيا بالتناوب . وفى الدور الختامى يغنى المتيم ديكه (أبو العرف صباح) مالى إلا ديكى أبا العرف صباح الفاره[1] فى الديوك نقرا وصياح
قد مد إلى النقار عنقا وجناح فاقبله وما عليك فى ذاك جناح

فيقول اليتيم : لا تذكر ديكك صباح حتى ترى القيم صياح الذى ما قاومه فى الديوك أحد وهو لذلك بيضة البلد .

ديكى من الهنود حذار من بأسه الشديد
إن كان منقاره فطارا[2] فإن كفيه من حديد
كأنما عرفه عقيق يرى على ورده الخدود
له إذا هاجه نقار من خصمه وثبة الأسود

وهنا يعرض المؤلف للنظارة منظرا من أجمل مناظر البابة إذ

---

(١) فره الرجل حذق ومهر ونشط وخف .
(٢) سيف فطار أى فيه تشقق ولا يقطع

يصور لنا نقار الديكة وكيف كان يجرى فتحط الرهون على يد الحكم (زيهون) ويخرج ديك اليتيم ويتلوه ديك المتيم فينشد المتيم ويقول :

أهلا وسهلا بطلعة الديك ... كأنه عروة الصعاليك
أتى بتاج كأنه ملك ... بين دجاج مثل المماليك
بطيلسان مثل الحرير مع التـ ... ـبر على منكبيه محبوك
رأيته إذ يسير من ذنب ... كأنه الصالح بن رزيك[1]
ويل لديك أتى يناقره ... وهم فى حربه بتحريك
فإنه يستبيح من دمه ... ما لم يكن مثله بمسفوك

فيقف الحكم بينهما بعصاه فينقرانه فى قفاه فيأخذ نفسه بالأهبة ثم يبتدئ قبل كلامه بالخطبة ويقول : الحمد لله فالق الأصباح ، ومليهم الديك تقسيم الزمان بالصياح . الذى توجه بتاج من عقيق ، وبرقعه ببرقع من الشقيق وألبسه الطيلسان المدبج ، وأقامه فى صورة الملك المتوج ، وخصه بالكرم والإيثار ، وفضله بذلك على جميع الأطيار ، وميزه بالذب عن الحريم ومقاومة الغريم ، والصلاة والسلام ، والتحية والإكرام على سيد المرسلين رسول رب العالمين

(١) طلائع بن رزيك هو أبو الغارات الملقب الملك الصالح وزير مصر ... ولما مات الفائز وتولى العاضد مكانه استمر الصالح على وزارته وزادت حرمته وتزوج العاضد ابنته فاغتر بطول السلامة وكان العاضد تحت قبضته فى أسره فلما طال عليه ذلك أعمل الحيلة فى قتله فاتفق مع قوم من أجناد الدولة يقال لهم أولاد الراعى وتقرر ذلك بينهم ... وجرحوه وحمل إلى داره مجروحا دمه يسيل وأقام بعض يوم . ومات يوم الاثنين ١٩ رمضان عام ٥٥٦ هـ . (راجع ابن خلكان جـ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٩).

وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد فإن مكافحة الأقران لا تختص بنوع من الحيوان وأحسن ما تفرج عليه السوقة والملوك مناقرة الديوك لأنه مناصلة ومناضلة ، ومقاومة ومنازلة وهذان الديكان قد وقفا للاصطلام [١] وأصرا على الإقدام ، فمن هرب من النقار والتجأ إلى الفرار وجب على العاقلة ما تقرر ، وليس بعار إذا عاد المغلوب وتكور باسم الله عليك يا صياح وأعيذك بالله يا صباح ... ثم يناقر الحكم بينهما على ذلك المثال وعادة الخيال ، فيستقفى ديك اليتيم من النقار ويتزوى بالهزيمة والفرار ، وهنا يصيح اليتيم ويقول : ديكى والله ما انهزم ولا على الفرار عزم ، وإنما حضر الوقت المعلوم للأذان فانصرف من اللعب إلى تسبيح الملك الديان . وهذه عادة هذا الديك المبارك فى إلهامه وإقباله وإقدامه ، ولئن هرب ديكى من صياح فدونك كبشى النطاح وكل لاعب يعرف كبشى الذى كأنه الأسد الوحشى يكاد ينطح ناطح البروج ، ويهدم بقرنيه سد يأجوج ومأجوج ، فيعلن الحكم ذلك فيقبل اليتيم ويقول إن خروفه من البشمور [٢] واسمه (وحشى) أما خروف اليتيم فاسمه (أبو الشين) . ومن ثم نرى أم اليتيم تظهر وفى يدها مبخرة فتبخر خروف ابنها ، وتتحدث عنه

---

(١) صلمه قطعه وقيل قطع أذنه وأنفه من أصلهما .

(٢) البشمور بالضم كورة بمصر قرب دمياط ، وفيها قرى وريف وغياض ، وفيها كباش ليس فى الدنيا مثلها عظما وحسنا وعظم ألايا ، وذلك أن الكبش لا يستطيع حمل أليته ، فيعمل له عجلة تحمل عليها أليته وتشد تلك العجلة بحبل إلى عنقه (ياقوت مادة بشمور) .

وعن صوفه وعن وفاة زوجها ويأتى بعدها الحكم فيلقى كلمة تشبه تلك التى ألقاها عند بقار الديكين ، ويحدث أن يهزم خروف اليتيم ويولى الادبار فيغنى كل من اليتيم والمتيم موالا يعقبه حديث لليتيم عن ثوره وبطشه . وعن عنايته هو به . ومن ثم يأخذ فى تعداد محاسن الحديقة التى يقيم فيها هذا الثور فينبرى له المتيم مفاخرا بثوره فيحضر الثوران ويقوم الحكم (زيهون) ويلقى خطبة من ذلك النوع الذى قرأناه فى الديكة لكن هذه المرة تدور الدائرة على المتيم إذ يهزم ثوره ويولى فيتألم المتيم ، وينشد نشيداً يتحدث فيه عن ذى القرنين وما جرى له وبعد أن يفرغ من كلامه ينادى : ياريس على... إنى أريد أن أصنع من لحمه خوانا للإخوان ، فيستدعى الجزار تعاشير والكبابجى (أبو جمران) فتقام الوليمة ، ويؤتى بالخمر والبخور ، والعود والند لكن يلاحظ أن اليتيم لا يظهر بل نرى على المسرح شخوصا أخرى يمثل كل منها رذيلة من الرذائل فنرى المخنث والطفيلى ، ويدور الكلام بين الأحير وبين المتيم ينتهى بطلب المتيم التوبة ثم يلتفت إلى القبلة ويموت فينقل إلى حيث يغسل ويكفن ويدفن ، وبذلك تنتهى البابة الثالثة من بابات ابن دانيال .

لعب التمساح

هذه مسرحية أخرى تعرض لنا صورة من صور الحياة المصرية والتفكير المصرى أو بمعنى آخر فنا من فنون الأدب العربى المصرى فى القرن السابع عشر . وتمتاز عن غيرها بتعدد مؤلفيها ، فهى ليست من وضع مؤلف بعينه بل من تأليف ثلاثة وهم الشيخ سعود ، والشيخ على النحلة ، وداود المناوى ، وتسمى لعب التمساح . أما الفضل فى تعريف العالم الحديث بها فيرجع إلى العلامة المحقق المستشرق الألمانى (بول كالا) فقد حضر عام ١٩٠٦ إلى مصر باحثا عن بعض المخطوطات والشخوص التى تتصل بخيال الظل ولا سيما فهو ثانى اثنين عرفهما العالم العربى كرسا حياتهما لهذا النوع من الأدب العربى أولهما « جورج يعقوب » الذى كان مديرا لمعهد اللغات الشرقية بجامعة كيل ، وثانيهما كان مديرا لمعهد جامعة بون على ضفاف الرين . وشاء الله أن يوفق « كالا » فى حضوره إلى مصر فعثر عام ١٩٠٩ مع شخص يدعى درويش القصاص على مخطوطة عنوانها « ديوان كدس[1] من كلام الشيخ سعود والشيخ على النحلة وداود العطار »

(١) الكدس والكداس هو ما يجمع من الطعام فى البيدر ، وقيل الكدس والبيدر والعرمة والشغلة واحد . وقيل الكدس جماعة الطعام وكذلك ما يجمع من دراهم وغيرها (أقرب الموارد) .

كما وجد رزمة من المخطوطات فى المنزلة تكمل هذه المخطوطة . وجمع أكثر من ثمانين شخصا من شخوص خيال الظل التى ترجع إلى عصر المماليك .

وتبدأ هذه المسرحية بظهور شخص على المسرح يسمى الحازق فيلقى ما يسمى بلغة القرن السابع عشر برهانة وهى :

تأملوا ياهل النظـــر ما قلت فى هـذا الخيال
من المعانى الرايقة مع حسن ترتيب المقال

بيت :

خيالنا هذا المليـــح على الخلايق ينطلى
ومن يجى بعدى يروم يصنع مثاله يبتلى
بالكمد والقهر الشديد وبالغصص قلبـــه ملى
ويرتجع خايب ذليـــل فى خزى زايد مع نكال
والحاضرين يتمسخروا عليـــه نساهم والرجال

وبعد أن يفرغ الحازق من هذه البرهانة التى تقع فى أحد عشر بيتا يدخل رجل فلاح يسمى زرقاش ويأخذ فى إلقاء النشيد الذى مطلعه :

يا لطيف الصنع يامولى الموالى يا كثير الجود بفضلك تعف عنى
حسن ظنى فيك أن تغفر ذنوبى ياإلهى لاتخيب فيك ظـــنى

فيقاطعه الحازق وبعد أن يناقشه مناقشة قصيرة يعود الفلاح زرقاش إلى الإنشاد فيقول :

يا إلهى أرض إصلاحى شراقى ... مايكون الحال وانا خايف الفضايح
لاازرع لى خير ولاقدمت تقوى ... وانقلب فدان صلاحى بالقبايح
كل ماانقلب فى سواقى العدل وازرع ... ينحصد قلبى يرودنى جرايح
والفلاحة فنها وأنت المسامح ... إن باب عفوك لعصيانى رحمنى
حسن ظنى ...

ومن هذا النشيد يتبين أن الزبرقاش والحازق من قرية واحدة فتنشأ بين الاثنين صداقة ، ومن ثم يذهب الاثنان إلى النيل لصيد السمك ، وهناك يطرح الزبرقاش الغابة فى الماء فتخرج سمكة كبيرة وتجذب الغابه بقوة يكاد معها يغرق الزبرقاش لولا مسارعة الحازق إلى إنقاذه وبعد نجاته يخاطب الحازق قائلا : أسكت يا أخى السمك بتاع البحر ده فتوة خد منى الغاب وكفانى على وشى :

الحازق : لا أشوف لك عم يعلمك الصنعة .

الزبرقاش : اعمل معروف يا مقدم شوف لى عم يعلمنى .

الحازق : طيب خليك واقف وأنا أجيب لك واحد يعلمك الصيد . فينادى الحازق ويقول : ياحج منصور يا شيخ المعاش .

منصور : مين ده اللى بيندهه ؟

الحازق : تعال جبت لك ولد تعلمه الصيد .

منصور : حاضر يا ابنى .

ثم يخرج الحاج منصور وخلفه الزبرقاش ويقول شيخ المعاش :

يا زبرقاش ماذا أصابك لـــا ... واقف تعيط فى دياجى الأسحار

هو حد مات لك افتـــكرته والا
نقشبر[١] أصابك جنب شط الأبحار

زبرقاش :

يا عم ياشيخ المعاش اصغى لى يامن عطيت بين أهل فنك رفعه
قال لى دليلى حـين تعلق بانى بغية الصيد واشـتغال الصنعه

وبعد محـاورة زجليـة لطيفة بين شيخ المعاش والزبرقاش يقول الأخير :

ياعم ساهل دا الـكلام وحياتك دا الوقت اغنى لك بليليق[٢] سكر
يكون على الطار صنعته والمزمار وكل داخل إن سمعنا يسكر
من نغمة السيكاه وضربه يسمى اسكندرانى فى الضروبات يذكر
وكل خال إن جا حداه أو خايل خايل عليه وانباع برخص الأسعار

ثم بعد ذلك ينتهى هذا الزجل من أزجال ذلك العصر بدور فى مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويختم بدور الاستشهاد ، وفيه يذكر اسم المؤلف ، ويأخذ الزبرقاش بعد ذلك فى غناء البليق المكون من تسعة أدوار ومطلعه :

يازبرقاش يا بن الأخيار مالك محتـــار
والدمع من عينك هدار شـــبه الأمطار

وبعد الفراغ من الغناء ينصرف مع شيخ المعاش الحاج منصور

---

(١) اقتشر الرجل عرى من ثيابه .

(٢) بليق فرس سباق كان يسبق الخيل وكان مع ذلك يعاب فضرب به المثل (يجرى بليق ويذم) مثل يضرب لمن يذم مع إحسانه .

إلى النيل للصيد — وهنا يسود السكوت ويخيم الصمت ، وبعد برهة يسمع صوت الاثنين وهما على الشاطئ يتأهبان للصيد وينشدان الأناشيد . وبعد الفراغ من الغناء يلقى الزبرقاش الغابة فى النيل حسب إرشادات شيخ المعاش فيخرج تمساح ويلتهم الزبرقاش إلا رأسه ، فيظل معلقا من فم التمساح . وفى هذه اللحظة تظهر على المسرح شخصية جديدة ألا وهى شخصية الرخم وهو المضحك فينشد الفلاح زبرقاش نشيدا غاية فى الجمال اقتطف منه :

قفوا أنظروا فلاح مكسور ذليل منهان
جوا حنك تمساح من سالف الأزمان

دور

يا من رماك دهرك فى فم دا التمساح
قول لى على أمرك وما دهاك يا صاح
لما بقيت لهفان والسر منك باح
والسر منك باح وانت بقيت لهفان
والدمع من عينك يجرى دما طوفان

دور

طول مدتى صياد يا من سأل عنى
فى صيدهم معتاد لما بقى فنى
جيته وأنا فرحان تاريه يطمنى
تاريه يطمنى جيته وأنا فرحان

فيّا طبق وامسيت باكى وحيني حان

وبعد أن يفرغ الفلاح من شكواه يتقدم الرخم وينشد :

مطلع

قبل الكلام أمدح نبينا الهادى من أنطق الله له الحجارة ياصاح
والضب جا سلم عليه فى الوادى وأما الجمل من عظم ما به قد باح

رخم

يا أيها الفلاح فاذا صابك لما بقيت فى فم عساح كاسر
دعوة فقير ولا دعاء من مظلوم ولامرابط كان بسره حاضر

وبعد أن يفرغ الرخم من دوره يعقب عليه الفلاح بدور آخر . وهكذا نجد أنفسنا أمام نقاش شعرى فى غاية الجمال والقوة ثم يأخذ الاثنان فى غناء بليق ينادى بعده الرخم على امرأة الفلاح ، فتخرج مسرعة ومعها ابنها ، ويحدث أن يدخل فى نفس الوقت شيخ المعاش فينهر المرأة وابنها ويطردهما ويعبر شخص أسود ويغنى :

يا عينى لا تنامى لا يجيك الحرامى
يسرقوا بيت الوسيه يضربوك خمسمائه

فيخاطبه شيخ المعاش : يابربرى يا بربرى : وهنا يسكت البربرى ويظل صامتا فيناديه شيخ المعاش مرة أخرى : يا بو سمرة . يا حج إدريس . فيلتفت إليه البربرى قائلا : خبر إيه انت ما يحطش شوية ملح فى عينك وتقول يا حج كاشف ! وبعد حديث طويل بينهما يعرض عليه شيخ المعاش مبلغا فى سبيل إخراج الفلاح من

فم التمساح فيقبل البربرى . وفى هذه الأثناء يمر رجل مغربى يسمى الحاج قدور منشدا :

قف أخبرك فى دى زمان القبايح ومن عدم الإنصاف قل الناصح
وأنا مغربى رمال بتختى سارح سبحان من يستر جميع الفضايح

وبعد أن يفرغ من إنشاده يعرض عليه شيخ المعاش مبلغا من المال إذا تمكن بسحره من إنقاذ الفلاح من التمساح ، فيقوم بين البربرى والمغربى شجار عنيف يشترك فيه فيما بعد عدد عديد من البرابرة والمغاربة وأخيراً يتفق المتشاجرون على حل ، وهو أن يدفع كل فريق للآخر مبلغا من المال إذا عجز عن إنقاذ الفلاح فيتقدم البربرى كاشف نحو الفلاح يريد إخراجه ، وخلف كاشف يقوم بربرى آخر يدعى عثمان ماسكا بكاشف ويتفق الاثنان فيما بينهما على أن يتكلما لغة سرية (سيم) حتى لا يفهم التمساح قصدهما . أما هذه اللغة السرية فتلخص فى لفظين (أرز) و (عدس) . أما لفظ (أرز) فمعناه أن يدفع عثمان . بينما لفظ (عدس) يعنى (يسحب) . وبعد ذلك يتقدم كاشف ويمسك رأس الفلاح ويصدر الأمر (عدس . رز . عدس . رز) وأخيرا يصيح (عدس . عدس) فينادى عثمان (رز . رز .) ويدفع كاشف فى فم التمساح مع الفلاح فيستولى الخوف على عثمان وينادى مغربيين يتمكنان من إنقاذ الفلاح وكاشف بإطلاق بخور وتلاوة عزيمة ، وعقب ذلك يحملان التمساح على رأسيهما ويسيران به على المسرح ينشدان نشيدا ختاميا .

لعب المنار

أو حرب العجم مسرحية مصرية ترجع إلى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى ، وقد وضعت خصيصا لتعالج الحروب الصليبية لذلك سميت بحق « حرب العجم » ووقعت حوادثها فى الاسكندرية فاطلق عليها لعب المنار . لم تصلنا كاملة وإن كان قد وصلنا جزء كبير منها فى مخطوطة للشيخ سعود والشيخ على النحلة وداود العطار .

وداود العطار أو المناوى الذى كتب هذه المخطوطة ، ودون فيها لنفسه الكثير من أزجاله هو أحد أبناء مصر الذين عاشوا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وهو الذى أسندت إليه رئاسة فرقة خيال الظل المصرية التى سافرت عام ١٦١٢ بعد أن أقيمت لها الحفلات الكبرى فى بولاق والاسكندرية إلى استنبول لإحياء حفلات زواج الوزير التركى محمد باشا السابع الذى حكم مصر حتى أغسطس ١٦١١ بكريمة السلطان العثمانى أحمد الأول(١٦٠٣ — ١٦١٧) . ويحدثنا المناوى هذا أنه تشرف بالمثول بين يدى السلطان الذى أجزل له العطاء . ومن ثم عادت الفرقة فى عام ١٦١٣ إلى مصر عن طريق دمشق والقدس .

وتبدأ هذه المسرحية بعرض منظر يمثل الأمواج وهى تتكسر على

جزيرة فاروس التى أقيم عليها المنار عند مدخل الاسكندرية ، ومن ثم يظهر شخص على المسرح يسمى الحارق فيستقبل المنار ويقول : الذى نعلم به الرئيس الأستاذ الحاكم على ذا المينة وذلك البلاد انى بعد أبو السداد مقدم على الوارد للشارد والوارد . وبعد أن يفرغ من هذه المقدمة ينشد البليق الآتى فى وصف المنار .

سعود الأديب يا صاح نظمو عجز الفصاح

بيت

أنظر ذالمنار يا نسان تلقى عمود له بنيان
من بلور وشى مرجان نقشه بالذهب وضاح

بيت

له سلم تراه معقود مبنى بالحكم مرصود
كم جاء له حزين مكمود زالت عنه الأتراح

بيت

وانظر باب شريق قدنار من خلفه رجال أخيار
لما يشهروا البتار يخلو الدما سواح

بيت

باب البحر يا قمر عنابى وله منظر
كم جا له ملك قسور راح مكسور دليل منجاح

بيت

واقشع يا أولى الألباب قنديلين على الأبواب

كم فيهم فنون وانداب ضياهم خفى المصباح

بيت

وانحقق ترى بالعين مظرف حسن دالبرجين
جواهم رجال يازين يرموا الكافر الفضاح

بيت

باب الوسط ما مثله فى حسنه ولا فى شكله
له وزرا زهت تعلو على من يكن جحجاح

وبعد أن وصف الشيخ سعود المنار وصفا دقيقا ، وتحدث عنه وعن أبوابه والنقش الذى يعلو واجهته تحدث عن آلات الدفاع المختلفة فقال :

فوق الواجهة يامجاد سيوف للجهاد ياجواد
وفيهم درق فولاد كم بهم بطل قد صاح

بيت

ومن فوق علاه يازين رامى لم يزغ بالعين
لو جاه كل يوم ألفين خلاهم بلا أرواح

وبعد أن سرد مختلف أدوات القتال الخفيفة ختم بليقه بقوله :

وانظر منجنيق صاعد قاعد للعدا رابض
للكافر وللجاحد يا لله يخطفو التمساح

انتهى الحازق من إنشاده والتفت فإذا بمركب من النوع المعروف بالغراب ترسو ، ويخرج منها رجل مغربى وبعد أن نفرأ وصفا جميلا

لهذه السفينة يتقدم المغربى على المسرح وينشد بليقا يخبر فيه المسلمين عن الصليبيين والاستعدادات التى يقومون بها لمهاجمة المسلمين ، وقد جاء فى هذا البليق وصف شامل لسائر البلاد المسيحية التى اشتركت فى الحملة وما يجب على المسلمين عمله لهزيمة الصليبيين . وبعد الفراغ من إنشاد هذا البليق يتقدم الحازق ويطلب ميمونا ليزعق بالنفير ويدعو القوم لسماع رسالة المغربى وقد استهل الحازق نداءه بقوله :

صيحوا على ميمون أخى يجى ويزعق بالنفير

* * *

دا المغربى ادى قد أتى ياخل من أقصى البلاد
قد جا يخبر يارجال عن اللئام أهل العناد
قصدى أجمع العسكر لهم لعل نظفر بالمراد

وبعد ذلك نراه يعدد لنا حكمة الجهاد ، وما أعده الله للمسلمين والمجاهدين فى الآخرة فيقول :

ياعصبة الدين والصلاة يامسلمين ياهل الصيام
قوموا إلى الفرض الذى قد أفرضو رب الأنام
فمن يبادر يلتقى له فى الجنان أعلى مقام
مع الكرام أهل التقى وينجبر قلبه الكسير

صيحوا على ميمون أخى

سلطاننا بالله انصروا على الطغاة المشركين
وأيدو ياخالق بالفتح والنصر المبين

وسائر العسكر جميـــع فى حفظ رب العالمـين
والحاضرين فى دا القام يكون لهم ربى نصـير
صيحوا على ميمون أخى يجى ويزعق بالنفـــير

وبعد الفراغ من هذا الإنشاد تتجمع جيوش المسلمين ، ويحضر الجاحد من قبل النصارى ويخبر المسلمين عن قيام الحرب ورغبة الصليبيين فى الاستيلاء على مصر والإسكندرية . فيدور حديث نرى بين الحازق وبين شخص آخر يدعى الرخم . وفى هذا الحديث نرى تصويرا فكهيا للمتحاربين .

يقول الحازق : تعالى يابو القطط نلاته ما نقاتل

يقول الرخم : ما يكونوا ؟

يقول الحازق : عريان ، وجعان ، وخايف . عندكش يابو القطط من دول ؟

يقول الرخم : ساكنين عندى وفى طبقة ، والطبقة هاوية .

يقول الحازق : أقف يابو القطط أما أجيب لك جماعتى .

يقول الرخم : أصبر لما أجيب لك جماعتى .

يقول الحازق : جماعتك يجوا إيش يعملوا ؟

يقول الرخم : وأنت لآخر جماعتك يجوا ايش يعملوا ؟

يقول الحازق : أنا أقول لجماعتى ياجاهدين يامغزيين . اجتمعوا فى طاعة رب العالمين ، دا يجى بسيفه ، ودا يجى برمحه ، ودا يجى بدرقته ، ودا يجى بقوسه ، يوقعوا الضرب والطعن بالنبال والقتل فى المشركين .

يقول الرخم : وأنا أعيط على جماعتى . يا جماعين . ياهفانين . ياعطشانين . عليكم بصماط صاحب الفرح عمل حلو كتير ، وعمل رز كتير ، وعمل لحم كتير ، دا يجى بقصعته ، ودا يجى بزلفته ودا بماجوره ، ودا بصحفته ، ويهجموا على الصماط .

ثم يلتحم الجيشان وتدور الدائرة على الصليبيين فيظهر على المسرح شخص ، وينشد بليقا .

جيش اللئام قد انكسر وجيش الإسلام انتصر

بيت

الروس على أعلى الرماح والبعض موسوقين جراح
والمسلمين زانوا السلاح وصيروا الكفار عبر

بيت

صغير وأمه مع أبوه وأخوته أتنين يسحبوه
من تحت تخته يحملوه متقيدين يمشوا زمر

بيت

وانظر ترى كم قوم إسار مستيسرين فى انكسار
داقوا العنا والاحتصار والهم والضيق والضرر

بيت

وانظر بنى الأصفر حقيق مجندرين بين الفريق
والدمع سال بل الطريق وحالهم حال واندثر

بيت

وانظر جيوش الكيتلان من القيود داقوا الهوان
وجيشهم بالقرب حان وأرواحهم تذهب سقر

بيت

رودس أسرناهم جميع باذن مولانا السميع
وانظر تراهم ياشجيع نفر ومن خلفه نفر

بيت

وأهل قبرص داللئام من حربنا داقو الحمام
وانتصرنا يا كرام على الذى بالدين كفر

بيت

وانظر لديريه كبار دموعهم تجرى غزار
وكل واحد فى افتكار للخلق يشخص بالنظر

بيت

جنويه ما قاسوا قليل أضحى العزيز منهم ذليل
وفى الحديد قاموا العويل ودمعهم يحكى المطر

بيت

والفنش جتنا فى القيود دولا ملاعين الجدود
لما تعدوا للحدود صاروا حديث بين البشر

بيت

وانظر لاشبتار كان مسلسلين يمشوا عيان
وما لهم معهم بيان لو ينتظر من كان حضر

بيت

وانظر تجار أولاد ملوك　　لهم على السرقة سلوك
يا ما خدو جنح الجلوك　　من المراكب فى البحر

بيت

معهم ترى أكياس دهب　　والعقل منهم قد ذهب
وحالهم صار حال عجب　　والحق للإسلام نصر

بيت

دولا جنوس لم يحصروا　　وكلما طال يقصروا
وعاينوهم وابصروا　　أقوام يحير فيها النظر

بيت

وامداح نبى هادى حسيب　　مرسوم من المولى الرقيب
مختار شفيع طاهر حبيب　　سيد ربيعة مع مضر

بيت

خير الخلايق والأنام　　والحق خصه بالسلام
منصور من المولى السلام　　وأعطاه عطا لم ينحصر

بيت

وألف دستور يا كرام　　أسمى سعود عمرى همام
وحاسدى عمره خمام　　ماله نظام مثلى درر

بلاهر وبوداسف

لعل تاريخ القصص لم يحفظ لنا قصة تنقلت بين الشرق والغرب ، وخدمت أكثر من عقيدة ودين ، وترجمت إلى معظم اللغات قديمها وحديثها مثل هذه القصة التى نعرض لها الآن .

فنحن نقرأ فى الفهرست لابن النديم الشيء الكثير عن كتب الهند وفارس ، وقد أفرد للأولى فصلا خاصا هو « أسماء كتب الهند فى الخرافات والأسمار والأحاديث » ذكر منها كتاب « بوداسف وبلوهر » وفى مواضع أخرى حيث يتحدث ابن النديم عن أخبار بعض المؤلفين أمثال أبان اللاحقى نجد ذكرا لأسماء بعض هذه الكتب الهندية التى نقلت إلى الفهلوية ومنها إلى العربية فمن هو بوداسف هذا ؟ هو فى الواقع اللقب الذى يعرف به نبى الهند (بودا) أعنى (بوديستفا Bodhisattva) ولا أدل على صحة أن بوداسف هذا هو بودا من مراجعة المواضع الأخرى التى ذكره فيها ابن النديم فهو يتحدث عنه مثلا فى كلامه عن « مذاهب السمنية » (من الهندية سراماناçramana) ويقول قرأت بخط رجل من أهل خراسان قد ألف أخبار خراسان وما آلت إليه فى الحديث . وكان هذا الجزء يشبه الدستور . قال نبى السمنية بوداسف ، وعلى هذا المذهب كان أكثر أهل ما وراء النهر قبل الإسلام ، وفى القديم

ومعنى السمنية منسوب إلى « سمن » وهم أسخى أهل الأرض والأديان وذلك أن نبيهم بوداسف أعلمهم أن أعظم الأمور التى لاتحل ولا يسع الإنسان أن يعتقدها ولا يفعلها قول « لا » فى الأمور كلها ، فهم على ذلك قولا وفعلا . وقول « لا » عندهم من فعل الشيطان ومذهبهم دفع الشيطان . ويذكر صاحب الفهرست أيضا فى سياق « الكلام على البد » ما نصه : من غير الكتاب الذى بخط الكندى اختلف الهند فى ذلك فزعمت طائفة أنه صورة البارى وقالت طائفة هذه صورة بوداسف الحكيم الذى أتاهم من عند الله : فما ذكرت عن ابن النديم واعتمادا على مواضع أخرى كثيرة واردة فى الفهرست يتضح لنا أن هذه القصة الهندية الأصل والتى عالجت (بودا) ترجمت إلى الفهلوية وعن الأخيرة إلى العربية وأكثر من مرة ، ويرجح أن الترجمة الفهلوية حدثت فى القرن السادس الميلادى وأيام خسرو كما أن أول ترجمة عربية كانت فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى . ولم يقف أمر هذه القصة عند هذا الحد بل نجدها فى أوائل القرن التاسع تكتسب عناية العالم المسيحى فيقبل عليها بعض العلماء وينقلونها من العربية إلى اليونانية تحت اسم (برلام ويواسف) لكن رأى المترجم أن يتخذ من هذه القصة أداة للدعاية إلى المسيحية والتبشير بالنسك فخرجت للعالم وهى قصة أخرى غير تلك التى نعرفها فى الهندية أو الفهلوية أو العربية . وعن اليونانية ترجمت فى القرن الثانى عشر إلى اللاتينية كما جاء فى القرن

الثالث عشر ابن حسداى ونقلها عن العربية إلى العبرية تحت اسم « ابن الملك والدرويش » . وفى العصور الأخيرة نجدها تنقل إلى مختلف اللغات الحديثة من غربية وشرقية ، والشىء الجدير بالملاحظة أن هذه القصة التى عرفها الغرب أصلا عن طريق العرب عادت فى العصور الوسطى إلى العربية ثانية لكن فى ثوبها اليونانى المسيحى لا الهندى الأصلى لذلك أصبحنا نجد فى العربية نصين مختلفين لهذه القصة .

أما النص الذى سأنشره هنا فقد أثار اهتمام كثيرين من المستشرقين فى القرن الماضى ولست أزعم أنه هو الذى أشار إليه ابن النديم وإن كنت أعلم أنه أقدم نص جاءنا فى العربية . وقد حصلت عليه مكتبة المستشرقين الألمان فى منتصف القرن التاسع عشر ومما يؤسف له حقا أن الصفحة الأولى لهذه المخطوطة قد فقدت كما ضاعت خاتمتها أيضا لذلك لانستطيع معرفة الاسم الذى اختاره المترجم قديما لهذه القصة وهذا ما دفعنى إلى إطلاق الاسم المتداول اليوم عليها أعنى (بلاام ويواسف)

ومن حسن الحظ أنها بقيت فى ثوبها العربى الفصيح الذى نقلت إليه من الفهلوية ولم تمتد إليها يد أديب من أدباء العامة كما حدث لكثير من قصصنا فهى والحالة هذه مثل واضح للقصة وما يطرأ عليها مع مر الزمن من تغيير وتبديل .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مختصر من كتاب أحد حكماء الهند الفاضلين ، وهو كتاب بليغ الإشارات مستعذب العبارات حسن المعانى نفعنا الله به آمين .

ذكر مصنفه أنه كان بأرض الهند ملك كبير ولشدة محبته فى الدنيا واشتغاله عن ذكر الآخرة وشغفه على ملكه أن لا يكون فى الدنيا من يطعن عليه ، أبعد أهل الدين ، وقرب أهل الأوثان . فسأل يوما عن رجل من أهل مملكته كان يستعين برأيه فقيل له : قد زهد فى الدنيا ، وخرج عن أهله ولحق بالنساك : فعظم ذلك عليه وأرسل فى طلبه فلما أحضر إليه ورآه فى حال أهل النسك شتمه ، وقال : بينما كنت عندى من كبراء أهل مملكتى أهنت نفسك وفارقت أهلك وطلبت الباطل : فقال الناسك أيها الملك إنه وإن لم يكن لى عليك حق فإن من الواجب أن تسمع قولى بغير غضب ثم تأمر بما يبدو لك فإن الغضب عدو العقل يحول بين صاحبه وبين أن يسمع ويفهم : فقال الملك : قل : قال الناسك : هل الذنب الذى تنكره على هو راجع إلى نفسى أم إليك ؟ قال : إلى نفسك وإلىّ فليس كل من أراد أن يهلك نفسه ينبغى لى أن أخلى بينه وبين ذلك ، فإنى أعد أهلاكه لنفسه كإهلاكه لغيره لأنى وليه ، والحاكم له وعليه فأنا أحكم عليك لنفسك وآخذ لها منك إذ أفسدت نفسا من رعيتى وهى نفسك مهما أدخلت على أهلك من الضيعة والغم . قال الناسك : إنى لأراك لا تأخذنى إلا بحجة ، والحجة لا تثبت إلا عند قاض وأنت

وإن لم يحضرك الآن من الناس قاض فإن عندك قاضيين وأنا بأحدهما راض : قال : ومن هما : قال الناسك : أما الذى أرضى بقضائه فعقلك وأما الذى أستعفى منه فغضبك : قال الملك : قل مابدالك ، واصدقنى بخبرك ومتى كان هذا رأيك ؟ ومن أعانك عليه ؟ : قال الناسك : أما خبرى فإنى كنت سمعت فى حداثة سنى كلمة وقعت فى نفسى فصارت كالحبة المزروعة فنبتت ولم تزل تنمو حتى صارت شجرتها إلى ما ترى وذلك أنى سمعت قائلا يقول يحسب الجاهل الأمر الذى هو الشىء لا شىء ، والأمر الذى لا شىء شيئا . وإن من لم يرفض الأمر الذى لا شىء لم ينل الأمر الذى هو الشىء ، ومن لم ينظر الأمر الذى هو الشىء لم تطب نفسه بترك الذى هو لاشىء . والشىء هو الآخرة والذى لاشىء هو الدنيا . فكان لهذه الكلمة عندى موقع لكن كانت الأهواء تغلب عليها وعلى الانتفاع بها ، والنظر فيها إلى أن ظهرت لى الدنيا التى كنت بجهلى أظن أنها شىء أنها لاشىء من غير أن أسألها إذ أرتنى أن حياتها موت ، وغناءها فقر وفرحها حزن ، وشبعها جوع وصحتها سقم ، وقوتها ضعف ، وعزها ذل ، ولذتها ألم . وكيف لا تكون حياتها موتا ومصير الحى فيها إلى الموت ! وكيف لا يكون غناؤها فقرا وليس يصيب أحد منها شيئا إلا احتاج إلى شىء آخر يصلحه كما يحتاج صاحب الدابة إلى علفها ، وقيمها ، ومربطها وآلاتها ، ثم يحتاج لصلاح كل شىء من ذلك إلى شىء آخر ! فمتى تنقضى فاقة من لا يصيب من أهل ولا مال ولا حاجة إلا دعاه ذلك إلى حاجات ، وكيف لا يكون

فرحها حزنا وهى مرصدة لكل من أصاب منها سرورا بأن تعقبه حزنا . وليس يأمن صاحبها إذا رأى فى أمر من الأمور مسرة أن يرى فى ذلك الأمر بعينه مضرة ، فإذا كان ولا بد من مفارقة الأهل والولد والمال ، وكان مراق ذلك اضطرارا بجهات شرا كثيرا ، فما أحق هذه الأشياء المذكورة بأن يتركها العاقل اختيارا قبل وقوع شىء من الجهات المذكورة التى هى أكثر وقوعا ولا يأسف عليها إن كانت حصلت له ، وإلا فإن لم تكن حصلت له فلا يطلبها ولا يؤثرها . وكيف لا يكون شبعها جوعا وهى تضطرم فى الجسد فإن لم يجد ماء يطفئها به أكلت جسده ، وإن شغلها عن أكل جسده تغذيه من الطعام والشراب كان ذلك قوة على العودة بمثل ذلك التضرم . وعادة الشبع زيادة فى الجوع ، وكيف لا تكون صحتها سقما وصحتها باعتدال أخلاطها المجمعة ، وهذه الأخلاط متضادة بكيفياتها وأقربها من الحياة الدم وأظهر ما يكون لموت الفجأة والطاعون والذبحة والخناق والأكلة والبرسام . وكيف لا يكون عزها ذلا ولم تر فيها عزا إلا انتهى إلى عزل ، وأى ذل أشد من العزل من العز ! وكيف لا تكون لذتها ألما وإنما هى دفع ألم وتنقطع فى أقصر الأزمنة ويعقبها ذلك الألم الذى دفعته بعينه وإذا اعتبرنا ذلك بأعمار الملوك وأعقابهم وجدنا أيام عزهم قصيرة بالنسبة إلى أيام ذلهم وذل أعقابهم . فلعمرى إن أحق الناس بذم الدنيا من أعطى منها حظا لأنه يتوقع منها فى كل يوم أن تغدو على ماله وأهله وولده أو عزه أو

بدنه أو نفسه ، وكيف لا أذم الدنيا وهى تأخذ ما تعطى ، وتورث التبعة ، وتسلب من تكسوه وتورثه الفضيحة ، وتمنع من ترفع وتورثه الحسرة ، وتقطع مواصلة عاشقها وتعقبه الندم ، وتغوى من أطاعها وتعقبه الشقوة ، وتدعو بتلطفها إلى الوقوع فى فخاخها وتورث التعب والحيرة فى الخلاص منها . فهى الصاحب الخؤون ، والطريق المهلك ، والمركوب العثور ، والسفينة الخلقة ، والبيت كثير الأفاعى والجنان الزايدة الوحوش . الملزومة التى لا تلزم أحدا ، والمحبوبة التى لا تحب أحدا . اللاعبة بصاحبها بينما هى تطعمه إذ جعلته مأكولا ، وبينما هى تستخدم له إذ جعلته خادما . تضحكه ثم تضحك منه ، تشمته ثم تشمت به ، تبكيه ثم تبكى عليه . وبينما هى تبسط كفه بالعطية إذ بسطتها بالمسألة والمسكنة . تعقد التاج على رأسه ثم تدفن رأسه فى التراب . تحلى الأيدى والأرجل بالذهب ثم تغلهم بالحديد تجلس المرء على السرير اليوم وتجلسه فى السجن غدا . تفرش له الديباج بكرة وتفرش له التراب عشية . تجمع له الأغانى ، والمضحكين ، والمادحين ، ثم تجمع عليه النوائح ، والباكين ، والنادبين . تحبب إلى أهله قربه ثم تحبب لهم بعده . تطيب ريحه اليوم وتنتنه غدا . تملأ نفسه من آمالها وكفه من جمعها فى الصباح ، وتخلى نفسه وكفه فى المساء . ترضى بكل من كل بدلا وتسد بالارذال مكان الأفاضل . تنقل قوما من الجدب إلى الخصب ، ومن الراحة إلى التعب ، ومن الجوع إلى الشبع حتى إذا عودتهم ذلك انقلبت عليهم فسلبتهم الخصب ، وحالت

بينهم وبين لين العيش ، وقد نزعت منهم القوة على خشونة ، فعادوا إلى أتعب التعب ، فأما قولك أيها الملك فى إضاعتى لأهلى ، وتركى لهم فإنى لم أضيعهم ولم أتركهم بل وصلتهم وانقطعت إليهم لأنى كنت أنظر بعين مسحورة لا أعرف بها الأهل من الغرباء ولا الأعداء من الأحباء . فلما صارت لى عين بصيرة نظرت فإذا الذين أحسبهم أهلا وأصحابا وأخوانا إنما هم سباع عادية ليس لهـا هم إلا أن تأكلنى أو تأكل بى ، واختلافهم على قدر تفاضلهم فى القوة ، فمنهم كالأسد فى البطش ، ومنهم كالذئب فى الخطف ، ومنهم كالكلب فى الهرير تارة والبصبصة تارة ومنهم كالثعلب فى الحيل والسرقة ، والقصد واحد والطرق مختلفة . ولو نظرت أيهـا الملك فى أمرك لرأيت أن أهلك وأهل طاعتك أشد عليك من الغرباء والبعداء ، وأما أنا الآن فإن لى أهلا وإخوانا وأولياء يحبونى وأحبهم لما لا يفقد ، فلا تنقطـع المحبة بيننا ، ويعملون لى وأعمل لهم بأجرة لا تنفد فلا يزال العمل قائما وكلنا نطلب ما يمكن أن نأخذه جميعـا ، وليس يمتنع أن يحوز كل واحد منا فى حال ما يحوزه الآخر وعلى نحو ما يحوزه بالطريق التى يحوزه بها ، فلا منافسة بيننا ولا تحاسد . وهؤلاء هم أهل الدين الذين واصلتهم والتمست السلامة لنفسى مثلهم ، والذين رفضتهم وقاطعتهم فأولئك هم أهل الدنيا التى هى لاشىء وقد عرفت نسبتها وفعالها فإن كنت تريد أن أصف لك الشىء فاستعد لسماعه . فقال الملك للحكيم لم تبعسر شيئا . ولم تظفر إلا بالشقاء العاجل والأمل الباطل والحرمان

النازل . فاخرج من مملكتى فإنك فاسد .

* * *

وولد للملك فى تلك الأيام غلام فابتهج به كثيرا لأنه كان مؤيسا من أن يكون له ولد ذكر ، فجمع المنجمين والعلماء لعمل مولد له فذكروا أنهم وجدوا أن هذا المولود سيبلغ من علو المرتبة مالم يبلغه ملك من ملوك الأرض ، فقال عالم منهم : ما أظن الشرف الذى يبلغه هذا الغلام من جنس الشرف الذى يحصل فى الدنيا فأظنه سيكون أماما فى النسك ، وذا درجة عالية فى الدين من درجات الآخرة : قال فتنغص سرور الملك بالغلام ثم أمر فأخليت له مدينة وتخير لخدمته وتربيته الثقات الصونة ، وتقدم لهم وأوصاهم أن لا يذكروا فيما بينهم موتا ولا آخرة ، ولا دينا ولا نسكا ، ولا زوالا ولا معادا . وإن نظروا من عرض له منهم شكوى أو علة ، فيعجلوا بإخراجه من بينهم حتى ينقطع من أفواههم ذكر الأشياء التى نهاهم عن ذكرها . فإذا بلغ الغلام أن يفهم الكلام لم يعرضوا على ألسنتهم بشىء من ذلك . قال : وكان للملك وزير قد كفاه أمره وكان أحباء الملك يحسدونه ، فخرج للصيد فوجد زمِناً فسأله فأخبره أن وحشا أصابه . وقال للوزير : اضممنى اليك لتجد منى منفعة فأمر بحمله إلى منزله ، وكان الوزير مؤمنا يكتم إيمانه لحكمة ثم وشى الحسدة بالوزير عند الملك أنه يطمع فى الملك ، وقالوا اختبر هذا بأن تذكر له أنك تريد النسك وترك الملك لترى ترغيبه لك فى ذلك ، وهذا فعلوه لأنهم

كانوا يعلمون رأى الوزير فى النسك وترك الدنيا . قال : فلما دخل الوزير على الملك فقال : أيها الوزير قد عرفت حرصى على الدنيا منذ كنت رجلا ، وقد تدبرت فيما مضى فلم أجد فى يدى منه شيئا والذى بقى هو مثل الذى مضى ، وقد يخرج من يدى فأنا أريد أن أعمل الآخرة ما كنت أعمل للدنيا ولا أجد لذلك حيلة إلا أن أترك هذا الملك وأهله وألحق بالنساك ، فما رأيك ؟ قال الوزير أيها الملك إن الباقى وإن كان مرجوا غير موجود ، فهو أهل أن يطلب ، وإن الفانى وإن كان موجودا لأهل أن يرفض ، فظهر فى وجهه ثقل القول عليه . فعاد الوزير إلى منزله وهو خائف لا يعلم ما يعمل فاجتمع بالزَمِن وعرّفه ما جرى فقال الزَمِن أظن أن الملك قد ظن أن قصدك أن تخلفه فى مملكته فإذا أصبحت فاطرح حليتك هذه والبس لباس النساك واحلق رأسك وامض ظاهرا إلى دار الملك فإن الناس سيرتاعون لذلك ويوصلون خبر حالك إلى الملك فإنه يستدعيك ويسألك عن صنعك فقل هو ما دعوتنى إليه فإن من أشار على صاحبه ومالكه بشىء فهو حقيق أن لا يتخلف عن مشار كته فيه فانهض بنا فإن ما دعوتنى إليه أراه هو الأرشد الأفضل مما نحن فيه . قال ففعل الوزير كما أمره الزَمِنُ ، فتحلل ما كان فى نفس الملك عليه من الغضب . قال ثم إن الملك غاظه موضع النساك ومنزلتهم فى قلوب الناس فأمر بنفيهم من جميع بلاده وتوعدهم بالقتل إن لم يفعلوا فأخذوا فى الهرب والاستخفاء . قال وخرج الملك يتصيد فرأى

شخصين من بعد فاستحضرهما فإذا هما ناسكان فقال لهما : لِمَ أخرتما الخروج ؟ قالا : نحن ضعفاء لا دابة لنا ولا زاد . فقال : إن من خاف من الموت ليسرع بغير زاد : قالا إنا لانخاف من الموت لكننا ننتظره ونسر به . فأما ما يسر به أهل الأرض فقد خرجنا منه ولسنا نعود إليه . قال : أفليس هروبكما فزعا من الموت ؟ فقالا : لا إنما هربنا كراهية أن نعينك على أنفسنا . فأمر الملك بهما فأحرقا ، ونادى بإحراق جميع من وجد من النساك فى مملكته رضى الله عنهما .

* * *

قال ونبت ابن الملك أحسن النبات فى جسمه ، وأفلح فى أدبه ونجح فى علمه وفطن بحصرهم إياه عن الخروج والنظر والاستماع . وقال لملهم أعلم بما يصلحنى فلما زاد بالسن والتجربة عقلا قال ما أرى لهم علىّ فضلا ولا ينبغى أن أقلدهم أمرى وأدعى التخيير لنفسى بل ينبغى أن أكشف رأيهم وأشاركهم فيه . وأراد أن يسأل أباه عن حصرهم إياه ثم قال : ما هذا الأمر إلا من قبله فما يطلعنى عليه لكن ينبغى أن أعرف ذلك مما تستميله الرغبة ويرهبه الوعيد . فمال إلى واحد كان يأنس إليه فزاد فى الاستيناس له والتخصص به ، وقال له : إن الملك يتردد إلى عندى كما تراه وإن الملك صائر إلى وإنك ستكون أسعد حالا إن أطعتنى وأسوأ حالا إن خالفتنى إما عاجلا وإما آجلا . فعرف منه الصدق ووثق منه بالوفاء فأفضى الكلام بينهما إلى

أن عرفه بجميع ما كان فشكره . فلما كان وقت دخول أبيه عليه قال له يا أبتى قد عرفت اختلاف حالى وضيق نفسى بهذا الحصر وأنك لما كنت على هذا المثال لم تكن على هذا الحال ولا دمت عليه إذ التغيير على ما تراه مستمرا . فعلم أبوه أن حبسه لا يزيده إلا إغراء قال : يابنى أردت أن أنحى عنك الأذى فلا تسمع ولا ترى إلا ما يسرك . ثم أمر الملك أصحابه أن يركبوا فى أحسن زى وينحوا عن طريقه كل منظر سوء وأن يجمعوا بين يديه الأغانى الحسان فلما تردد فى ركوبه وكثر منه ذلك اشتدت الكلفة على الناس فى تنحية المرضى والزمنى من طريقه فغفلوا يوما عن رجلين من المتصدقين أحدهما مورم مرهل مصفر بشع المنظر شديد الأنين والآخر أعمى ينهش قائده لينحيه بسرعة من طريقه فلما رآهما ابن الملك اقشعر منهما فسأل هل هذا ممكن فى أحد من الناس غير هذين ؟ فقيل له: نعم . فمضى محزونا باغضا للعيش مستخفا بالملك ثم رأى بعد ذلك شيخا كبيرا قد أحناه الكبر ، وابيض شعره ، واسود لونه ، وضعفت قواه . فقال : ما هذا ؟ فقيل له : الهرم . فقال : وفى كم يبلغه المرء ؟ فقيل له : فى مائة سنة ونحوها . فقال : وما وراء ذلك ؟ قيل له : الموت . فقال ما أسرع اليوم فى الشهر ، والشهر فى السنة والسنة فى العمر ؟ إن الأمر لغير ما نشتغل به . وانصرف وهو يكرر هذا القول فانصرفت نفسه عن الدنيا وشهواتها واجتمع بذلك الرجل الذى كان يأنس إليه ويختص به ، وقال له : هل تعرف أحدا من

الناس شأنه غير شأننا ؟ فقال له : نعم ! النساك الذين يرفضون الدنيا ويطلبون الآخرة ولهم علم وكلام غير أن الناس عادوهم ونفاهم الملك أبوك وأحرقهم بالنار . قال فصار ابن الملك كطالب ضالة قال واشتهر خبره فى الآفاق بالجمال والكمال ، والفهم والأدب والعلم والزهد فى الدنيا ، فبلغ خبره إلى ناسك حكيم بجزيرة سرنديب يقال له (بلوهر) فقال : لأخرجن هذا الحى من بين أولئك الموتى ثم سار إليه فلما وصل إلى المدينة التى فيها ابن الملك طرح شكل النساك ولبس لباس التجار وتردد إلى باب ابن الملك إلى أن عرف الحجاب وتلطف إلى أن اجتمع بذلك الرجل الخاص بابن الملك فى خلوة فقال له : إنى رجل غريب من سرنديب قدمت بسلعة غريبة شريفة جدا ومنفعتها أنها تبرئ المرضى ، وتبصر الأعمى ، وتقوى الضعفاء . ولم أجد أحدا أحق بها من ابن الملك لجماله وكماله . فقال له : إنك تصف أمرا عجيبا ، وعقلك ما أرى به بأسا ، وكلامك حسن لكن لا ينبغى لى أن أذكر خبرك حتى أرى سلعتك . فقال : أنا مع تجارتى طبيب وأرى بصرك ضعيفا وسلعتى لها إشراق يذهب بالأبصار الضعيفة ، وابن الملك حديث السن قوى البصر أرى أنه أهل لذلك . فدخل الحاجب واخبر ابن الملك به فحدثته نفسه أنه قد أصاب حاجته من علم النسك وأمره بإدخاله عليه سرا ، فحمل الحكيم (بلوهر) معه سفطا فيه كتب وقال بضاعتى فى هذا السفط قال فلما دخل (بلوهر) وخرج ذلك الحاجب تلقاه ابن الملك أحسن ملتقى ،

وأكرمه وعظمه . فقال له (بلوهر) يابن الملك أراك قد زدتنى من الكرامة على أهل مملكتك . قال لعظيم مارجوته عندك . فقال مثلك معى يابن الملك مثل الملك المعظم الرجلين المسكينين لأجل دينه .

* * *

قال ابن الملك : وكيف ذلك ؟ قال الناسك ذكروا أنه كان ملك يحب الخير ويقتبسه من أهل الصلاح والفضل ، فبينما هو يسير يوما مع أصحابه إذ مر برجلين يمشيان حافيين ولبسهما الخلقان وعليهما أثر البر والفضل . فلما رآهما ترجل عن مركوبه وعانقهما وأكرمهما فعز ذلك على أصحابه ، وكان الملك أخ جاهل لا يعرف مقدار أهل النسك والعبادة إلا أنه كان دون أخيه ، وليس له أمر . فذهب أصحاب الملك الفاضل إليه وقالوا إن الملك قد أزرى بنفسه وفضح أهل مملكته إذ ترجل لإنسانين ذميمين فعاتبه لئلا يعود لمثله ، ففعل . فلما قضى كلامه أجابه بعض الجواب ، وانصرف وهو لا يدرى أساخط أم راض ، فلما كان بعض أيام أمر الملك الفاضل منادى الموت أن ينادى بباب دار أخيه وأن يضرب بطبل الموت على باب داره ، وكانت تلك سنتهم فيمن أرادوا قتله . فقامت المناحات فى بيت أخ الملك فلبس الأكفان ومضى باكيا إلى باب أخيه الملك الفاضل ، فلما دخل عليه وقع إلى الأرض ونادى بالويل ، ورفع يديه بالتضرع . فقال له الملك : مما جزعك أيها السفيه ؟ قال : أتلومنى على جزعى وأنت تنادينى بالموت ؟ قال : أفجزعت من مناد ينادى بأمرى وأنا أخوك ، وقد تعلم أن ليس

لك إلىّ ذنب يوجب القتل فكيف تلومنى على جزعى من منادى ربى حين نظرته ووقعت إلى الأرض جزعا مما تذكرت به الموت الذى قد توديت به منذ ولدت فاذهب فانما استزلك وزرائى وسيظهر خطأهم .

* * *

قال الناسك : ثم أمر الملك فصنعت له أربعة توابيت خشب وطلا اثنين منها بماء الذهب واثنين بالقار، ثم ملأ تابوتى القار ذهبا وجوهرا وملأ تابوتى الذهب جيفة منتنة ثم جمع وزراءه وعرض عليهم التوابيت وأمرهم بتقويمها فقالوا أما فى ظاهر رأينا فلا ثمن لتابوتى الذهب لفضلهما ، ولا ثمن لتابوتى القار لخستهما فأمر بفتح تابوتى القار فاستنار البيت بالجواهر ، فقال : هذا مثل الرجلين اللذين أزدريتم بهما لظاهر لبسهما الدنى وتقشف هيأكلهما وهما مملوءان برا وحكمة وجميع الفضائل التى هى أنفس من هذه الفضائل قدرا . ثم أمر بفتح تابوتى الذهب ففاحت منهما الروائح المنتنة وانكشفت الأشباح الموحشة المغبرة البشعة الكريهة فاستبشعوا المنظر ونادوا من قبح الرائحة . فقال : هذا مثل المتزينين بظاهر الحلية المفتخرين بهذه الأجسام الفانية المستحيلة وباطنهم مملوء جهلا وشرا وجميع الرذائل التى هى أبشع وأقذر من هذه الجيف . فقالوا : قد تيقظنا واتعظنا فهذا مثلك يابن الملك فيما لقيتنى به من إكرامك ، فانتصب ابن الملك قائما وقال : الآن قد أيقنت بوجدان مطلوبى فزدنى من ذلك .

* * *

قال الناسك : إن الزارع خرج يبذره الطيب ليبذره فلما ملأ منه كفه وبذره ، فوقع بعضه على حافة الطريق فلم يلبث أن خطفه الطير ، ووقع بعضه على صفا قد أصابه ندى وطين فنبت فلما صارت عروقه إلى يبس الصفا مات ، ووقع بعضه فى أرض ذات شوك فلما كاد أن يثمر خنقه الشوك فأمانه ، ووقع أقله فى أرض طيبة منقاة فسلم وزكا وطاب . فالزارع حامل الكلمة والبذر الطيب صواب الكلام ، وما وقع إلى حافة الطريق فخطفه الطير فذلك ما لم يجاوز السمع حتى مَرَه صفحا ، وما وقع على الصفا ثم يبس حين بلغت عروقه الصفا فذلك ما استحلاه صاحبه لما قرع سمعه ولم يعقد عليه نيته . وما نبت وكاد يثمر ثم أهلكه الشوك فهو ما وعاه صاحبه حتى إذا كان عند العمل الذى هو ثمرته خنقته الشهوات والهموم فأهلكته ، وأما الذى سلم وزكا وطاب فما اقتبله السمع والبصر ، ووعاه الفهم والحفظ ، وأمضاه عزم الفكر والرأى ، ولم يشاركه فى ذلك مشارك . قال ابن الملك إنى أرجو أن يكون ما تبذره عندى مما يسلم ويزكى ويطيب فاضرب لى مثل الدنيا وغرور أهلها وما هم عليه .

* * *

قال الناسك زعموا أن رجلا خرج فى مفازة فبينما هو يسعى إذ حمل عليه فيل مغتلم فهرب وتبعه الفيل فوجد بئرا فتدلى فيها وتعلق بغصنين نابتين على حافتها وثبت رجليه على شىء فى جانب البئر . فلما تبين الغصنين رأى عندهما جرذين أسود وأبيض يقرضانهما دائما ،

ونظر إلى ماثبت عليه قدميه فإذا هو بأربع أفاعى ، ونظر إلى قعر البئر فإذا هو بتنين فاغرا فاه يريد التقامه ثم رفع رأسه إلى الغصنين فإذا فى أعلاهما شىء من عسل النحل فتطعم من ذلك العسل فألهاه ما وجده من حلاوة العسل عن الاهتمام بالغصنين اللذين هو متعلق بهما وقد رأى إسراع الجرذين فى قطعهما وبالحيات الأربع التى اعتمدت رجلاه عليهن ولايدرى متى تهتاج به واحدة منهن ، وبالتنين الفاغر فاه الذى لا يدرى كيف مصيره عند وقوعه فى لهوته ، وبالنحل والزنابير التى تلدغه عند أكله من ذلك العسل ؛ فالبئر هى الدنيا المملوءة بلايا ، والغصنان هما العمر ، والجرذان هما الليل والنهار ، وإسراعهما فى قطع الغصنين هو إسراع الأيام والليالى فى قطع العمر ، والأفاعى هى الاخلاط الأربعة التى متى هاج أحدها قتل ، والتنين هو الموت الراصد ، والنحل والزنابير هى المصائب والبلايا ، والعسل هو غرور الناس فى الدنيا بقليل ما ينالونه فيها من لذة العيش الممزوج بالمحن ، والمشقات شبه العسل الممزوج بلسع الزنابير والنحل . قال ابن الملك : المثل عجيب والتشبيه حق ، فزدنى مثلا للدنيا مع صاحبها المغرور فيها بما لا ينفعه ، المتهاون بما يعود عليه من النفع .

* * *

قال الناسك ذكروا أن رجلا كان له ثلاثة قرناء فأما أحدهم فإنه كان يؤثره ويعززه بنفسه فى الذب عنه ، وأما الثانى فدون الأول إلا أنه كان يحبه ولا يغفل عنه ، وأما الثالث فمحقور معزول عنه

لا يشتغل به إلا قليلا ، فنزلت بالرجل نازلة احتاج فيها إلى قرنائه وأتته رسل الملك ليذهبوا به ، فأتى إلى قرينه الأول وقال له : قد علمت إيثارى إياك وبذلى نفسى لأجلك وهذا يوم حاجتى فماذا لى عندك ؟ فقال له : إن لى أصحابا يشغلوننى عنك وهم اليوم أولى بى منك غير أنى كاسيك ثوبين لاتنتفع بهما . قال ثم أتى إلى صاحبه الثانى فقال له : كنت أسد حاجتك وأسعى فى مرضاتك وقد احتجت إليك فماذا لى عندك ؟ فقال له : إن أمر نفسى يشغلنى عنك اليوم وقد انقطع مابيننا ، وطريقك غير طريقى غير أنى أشيعك خطوات يسيرة وانصرف إلى ما هو أغنى لى منك . فالتفت إلى قرينه الثالث فقال له : إنى يا أخى لمستحيى منك لكن الحاجة قد اضطرتنى إليك فماذا لى عندك ؟ قال : عندى المحافظة عليك واللزوم لك وقلة الغفلة عنك وأنا صاحبك الذى لايخذلك ولا يسلمك فلا يهمنك قلة ما أسلفت عندى فإنى كنت أحفظ ذلك وأوفره عليك ثم أرضى لك به ، وما ادخرت عندى من مالك القليل فلك أضعاف ما وضعت عندى ، وأنا أرجو أن يكون فى ذلك رضى الملك عليك . فقال الرجل : ما أدرى على أى الأمرين أتحسر على إدنائى قرين السوء أم على إقصائى قرين الصدق ! فالقرين الأول المال والثانى الأهل والثالث العمل الصالح . قال ابن الملك : هذا هو الحق فزدنى منه .

* * *

قال الناسك زعموا أن أهل مدينة كانوا يملكون عليهم الرجل

الغريب منهم الجاهل بأمرهم ، وبعد سنة يخرجونه عريانا فيصير ما مضى من أمور ملكه وبالا عليه . وواحد منهم لما رأى غربته من أهل المدينة لم يستأنس إليهم وطلب أن يجد رجلا من أهل أرضه أو من يخبره بأمورهم وعوائدهم؛ فلم يكل متطلبا ذلك حتى وجد من أفضى إليه سرهم وأشار عليه أن يقدم مما فى يديه مهما استطاع حتى إذا خرج وجده ، ففعل ذلك فكانت العاقبة إلى سلامة . فأنت يابن الملك بمنزلة ذلك الرجل الغريب الذى لم يستأنس بالغرباء منه ، وأنا الرجل الذى طلبت وعندى لك الدلالة والمعونة ، قال ابن الملك إنى فى الدنيا زاهد فاخبرنى عن أمر الآخرة . قال الناسك : إن الزهد فى الدنيا مفتاح الرغبة فى الآخرة ، ومن رغب فى الآخرة طلبها ، ومن طلبها أصاب بابها ، ومن أصاب بابها دخل ملكوتها ، ومن دخل ملكوتها فاز بخيراتها . وكيف لا تزهد فى الدنيا وأنت ترى أمورها صائرة إلى هذا الجسد الذى لا امتناع فيه فالحر يذيبه ، والبرد يجمده ، والماء يغرقه ، والنار تحرقه ، والهوام تفسخه ، والوحش يفترسه ، والحديد يقطعه ، ومصادمة الصلب من الأجسام تكسره ، والأمراض والأوجاع معجونة فيه ، ولا طمع فى دوام صحته وسلامته ، وهو مع ذلك مقارن الحر والبرد والمرض والخوف والجوع والعطش والموت . قال ابن الملك : هل الذين كان أبى قد نفاهم وأحرقهم هم أصحابك ؟ قال : نعم . قال : إنه بلغنى أن الناس قد اجتمعوا عليهم بالعداوة وسوء الثناء . قال : أما العداوة فنعم ، وأما سوء الثناء فما عسى أن يقال فيمن يصدق

ولا يكذب ، ويعلم ولا يجهل ، ويكتفى بأقل الأشياء ويتجرد من ماله وأهله فلا يؤذى نفسه ولا الناس ولا يخافونه على أنفسهم ولا على أهلهم ولا مالهم . قال : فكيف اتفق الناس على عداوتهم وهم فيما بينهم مختلفون ؟ قال : كما اجتمعت كلاب على جيف تنهشها وبعضها ينهش بعضا ويهر عليه ، وهى مختلفة الأشخاص والألوان وبينما هى تقتتل على الجيفة إذ مر بهن رجل فترك بعضهن بعضا وطلبن الرجل جميعا متعاونات عليه ، وليس له فى جيفتهن إرادة . لكن استوحش منه لغربته منهن واستأنس بعضهن ببعض . فالجيفة هى متاع الدنيا وأصناف الكلاب التى تقتتل عليها هى أصناف الناس الذين لا هم لهم إلا الدنيا ، والرجل الذى اجتمعت عليه الكلاب ولا حاجة له فى فى الجيفة هو الناسك الذى لا ينازع فى الدنيا أحدا ولا يمنع ذلك الناس لغربته منهم ، وأية حجة أبلغ من تعاون المختلفين على عداوة من لاحجة عليه عند العارفين ! قال ابن الملك : اعمد لحاجتك وداوى عداواتك . قال الناسك : إن الطبيب الحاذق إذا رأى جسدا قد أنهكته الشهوات والاخلاط الفاسدة وأراد أن يقويه ويسمنه لم يبده بالطعام الذى منه يكون اللحم والقوة لعلمه بأن إدخال الطعام القوى على الاخلاط الفاسدة وبال على الجسد لكنه يداويه بما ينقص أخلاطه الفاسدة وينقى عروقه ، وبعد ذلك يغذيه بما يصلحه من الطعام والشراب وحينئذ يقوى على حمل الثقيل . فقال ابن الملك : أفهذا الذى تدعونى إليه شىء تظفر به الناس بعقولهم حتى اختاروه على

ما سواه ؟ فقال الناسك : إن هذا الأمر أعظم من أن يكون من أمر أهل الأرض أو برأيهم يدبرونه ، ولو كان من رأى أهل الدنيا لدعى إلى عملها وزينتها من أكلها وشربها ولباسها واجتماعها وعمارتها ولهوها وشهواتها لكنه أمر غريب فيها ناقض عليها . قال : فهل أحد يدعو إلى هذا غيركم ؟ قال : نعم أهل الأديان من سائر الأمم . قال ابن الملك : فما جعلكم بهذا الأمر أولى من غيركم ؟ قال : أصل دعوة الحق واحدة لكن يفرق بيننا وبين غيرنا أن هذه الدعوة لم تزل تأتى وتظهر فى الأرض مع أنبياء الله ورسله فى القرون الماضية على ألسنة متفرقة . ولكل دعوة هدى وأمر صحيح فيحولون الأمم عن جهته ويتركون قصد سبيله ويبقون متعلقين باسمه يدعون بمعرفته فهذا الذى يفرق بيننا وبينهم ولسنا نخالف أحدا فى شىء إلا ولنا عليه الحجة من بقية ما فى يديه من الكتب وما يجرى على لسانه من الصفة ، وسيرتنا تشهد لنا بموافقة الحق وسيرتهم تشهد عليهم بالمخالفة . قال : فما بال الأنبياء والرسل يأتون ثم ينقطعون حتى تدرس آثارهم ، وتجهل علومهم ؟ قال : ألم تر صاحب البستان كيف ينصب فيه ضروب الغروس ثم يسيجه شتويته كلها ولا يدخله تلك المدة إلا قليلا فإذا جاء زمن الربيع حينئذ يدخله ويقصد الناحية التى فيها حاجته ، وكذلك الأنبياء والرسل إنما تجىء للبغية المأمورين بها من عند الله عز وجل ولكل زمان بغيه فالزهر فى زمان والثمر فى زمان آخر . قال فيقصدون أهل بغيتهم فقط أم يعمون بدعوتهم من يجيبهم ومن

لا يجيبهم ، كأنهم لا يعرفون أهل إجابتهم وأهل طاعتهم وولايتهم .
قال الناسك : اسمع لمثل أضربه لك .

* * *

يقال إن ببعض سواحل البحر طائراً يبيض بيضا كثيراً ويأتى زمان يتعذر عليه فيه سكن ذلك الساحل فلم يجد بدا من انتجاع أرض أخرى حتى ينقضى ذلك الزمان فيأخذ بيضه يفرقه فى أعشاش الطيور وأوكارها بيضة بيضة خلال بيض كل صنف من الطير ، فيحضن الطيور بيضه مع بيضها وتخرج فراخه مع فراخها حتى إذا كان زمن عودته مر على تلك الأوكار والأعشاش بالليل فيصوت فيسمع فراخه وغيره صوته . فأما فراخه فتجتمع إليه إذا سمعت صوته ، وأما فراخ سائر الطيور فلا تجيبه ، وكذلك الأنبياء والرسل إنما يجيب دعوتهم العامة من كان منهم . قال فإذا زعمت أن كلام الرسل ليس هو مثل كلام الناس أفهو كلام الله وملائكته أم غيره ؟ قال ألم تر الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطيور ما يريدون من تقدمها وتأخرها وإقبالها وإدبارها لم يجدوا الدواب والطيور تحتمل كلامهم على هيئته فوضعوا لها ما تطيق حمله من الزجر والإشارات ما بلغوا به حاجتهم منها ! وكذلك لما كان الناس يعجزون عن حمل كلام الله وملائكته كهيئته على كماله وصفته فصار ما يراجعون به من الأصوات التى بها يسمعون الأصوات من كلام الحكمة بالألسنة اللحمية كصوت الصفير والزجر الذى احتملته

الدواب من الناس ، وكذلك روح الحكمة مخبوء فى تلك الأصوات . وكما أن الكلام إذا كان فيه حكمة الله يشرف لشرفها كذلك الأجساد تشرف بالأرواح وكما أن الأجساد إذا خلت من الأرواح لا نفع بها كذلك الكلام إذا خلا من الحكمة التى هى بمنزلة الأرواح لا ينتفع به . قال فما بال هذه الحكمة التى وصفت من قوتها وفضلها ما وصفت لا ينتفع بها الناس جميعا !

* * *

قال الناسك إن نور الحكمة كشمسين يطلعان جميعا على من واجه نورها من جميع الخلق من أعمى وبصير ، فالشمس الظاهرة إذا طلعت على الأبصار الظاهرة فرقت الناس على ثلاث منازل : فمنهم الصحيح البصر الذى ينفعه الضوء ويقوى على النظر فيه ، ومنهم الأعمى الغريب من الضوء الذى لا يجدى عليه طلوع الشمس شيئا ، ومنهم المريض البصر الذى لا يعد فى العميان ولا الأصحاء الأبصار ، وهذا ينتفع بالضوء بقدر إبصاره ويستضر بالضوء بقدر ضعف عينيه . وكذلك شمس الحكمة التى هى شمس القلوب إذا أشرقت على القلوب فرقت بين أهلها على ثلاث منازل : منزلة أهل البصيرة الذين يفعلون بالحكمة ويكرمون أهلها بإيثارها واعتقادها والعمل بمقتضاها ويجعلون أيامهم فى علم ما لم يعلموا منها وعمل ما يعلموه منها . ومنزلة أهل العمى الذين نسبة قلوبهم إلى الحكمة شبيه العين العمياء إلى الشمس ، ومنزلة أهل مرض القلوب الذين

يقصر علمهم ويضعف عملهم ، ويجتمع فيه الجيد والردئ ، والحق والباطل ، والفرق بين هاتين الشمسين أن الباطنة أكثر من هى طالعة بحللها عميان عنها ، وفى كل منزلة من منازل البصر الباطن من الاختلاف ما بين حبات اللؤلؤ فهى وإن جمعها اسم واحد فإن بينها تفاوت كثير . قال ابن الملك : فهل لأهل التقصير نجاة ؟ قال : إن فى التخلص من الجهالة والضلالة عتق ، وفى التعلق بعصمة الحكمة نجاة ، والجزاء غير ساقط منه شىء وإن قل . قال : ترى يسمع أبى من هذا الكلام شيئا ؟ قال : ما أظنه ينصت له . قال : وكيف ترك الحكماء ذلك ولم يكلموه فى ذلك الأمر العظيم وينصحوه ؟ قال : لعلمهم بموضع كلامهم حتى إن ربما كان بعض الحكماء يعاشر الرجل الجاهل طول عمره وهو يرى منه المودة ولا يفرق بينهما إلا الاعتقاد وهو مع ذلك متوجع له ولا يرى أن يفضى إليه بأسرار الحكمة إن لم يره أهلا كما أصاب الملك المغتبط مع وزيره الحكيم .

. . .

إنه بلغنا عن ملك كان مصلحا ، وكان له وزير يعينه على الصلاح ، وكان الوزير قد سمع كلام الحكمة وفهمه وأحبه وانقطع إلى أهله ، وكان الملك لا يكتمه شيئاً ، وكذلك الوزير لم يكن يكتمه شيئاً إلا أمر الدين والحكمة . وتعاشرا كذلك دهرا طويلا والوزير كلما رأى الملك يسجد لأصنامه ويهدى لها ويسير بسيرة ضلالتها يهتم ويغتم ويشاور أصحابه فى كلامه فى ذلك ، فيقولون له أنت أخبر بصاحبك فإن رأيته موضعا للكلام فكلمه وإلا فإياك أن تبعثه على

الدين وأهـله ، فإن السلطان يغتر به قال وإن الملك قال للوزير فى بعض الليالى بعد هدوء الناس ، وكان قد صار فى تلك الأيام مطر شديد ، هل لك فى أن نسير فى المدينة فننظر فى أحوال الناس ، وآثار الأمطار التى أصابتنا فى هذه الأيام ؟ فقال : نعم إن أحببت . فطافا فى نواحى المدينة فمرا فى بعض طريقهم على مزبلة لأهل المدينة قد صارت تلا كبيرا ، فنظر الملك ضوء نار يبدو من جانبها . فقال للوزير : انزل بنا نمشى حتى ننظر إلى هذه النار من قرب ونعلم علمها . فلما انتهيا إليها وجدا فيها ثقبا شبيها بالغار وقـد ثقبه مسكين من المتصدقين فاتخذه مسكنا له ولزوجته ، وسمعا صوت غناء فنظرا من حيث لا يبصرهما من فى الغار فإذا هما برجل مشوه الخلقة متكئا على ما قد هيأه له من الزبالة ، وعليـه ثياب من خرق المزابل وبين يديه كسر خزف من المرمية على تلك المزبلة فيـه شراب وبيده عظم من عظام تلك الموتى الملقاة ، وقد شد عليـه جلدا من تلك الجلود الميتة شبه الطنبور ، وامرأته قائمة بين يديه وهى فى خلقته ولباسه تسقيه ، وإذا دعته دعته سيد الرجال ، وإذا دعاها دعاها سيدة النساء وبينهما من السرور والضحك ، والطرب والتعاشق ما لا يوصف . فتعجب الملك من حالهما وما هما فيه من اللذة ، وانصرفا وهو لا ينقضى تعجبه من ذلك مما رآهما ، ثم قال لوزيره : ما أعلم أنه أصابنا من السرور واللذة مثلما رأينا عند هـذين المسكينين وأظنهما يفعلان هكذا كل ليلة فاغتنم الوزير الكلام من الملك ، فقال : أيها الملك إنى أخاف أن

نكون من الغرور مثلما هم فيه . قال : وكيف ذلك ؟ قال : أن يكون ملك عند من يعرف الملكوت الدائم مثل هذه المنزلة فى أعيننا ، وتكون مساكنك عند من يرجو مساكن السعادة الباقية مثل هذا الغار فى أعيننا ، ويكون تعجبهم بما أنت فيه من الجمال والكمال مثل إعجابنا بما هذين المسكينين يظناه بأنفسهما . قال الملك : ومن هم أصحاب هذه الصفة وما الذى يصفونه من الملكوت الدائم ؟ قال الوزير : هم الذين يعرفون الله ويطلبون الآخرة دار السرور الذى لا حزن معه ولا يتبعه ، والدعة التى لا نصب فيها ، والنور الذى لا ظلمة تعقبه ، والعلم الذى لا جهل معه ، والمحبة التى لا بغض عنها ، والرضى والأمن اللذين ليس معهما سخط ولا خوف ، والحسن والطيب اللذين لا قبح معهما ولا نتن ، والصحة والحياة اللتين لا يعقبهما سقم ولا موت ، والسلامة الخالصة من جميع الشرور وتمام جميع الخير . قال الملك : فهل يذكرون أن لهذه الدار مطالبا أو إليها سبيلا ؟ قال : نعم لا يشكون أن من طلبها دخلها . قال فلمَ لا أخبرتنى بهذا قبل اليوم ؟ قال الوزير : لأن السلطان يعمى عن هذا ويصم ، ويدفعه العمى والصمم إلى الغضب والحمية ، ويحول بينه وبين الفكر والتدبر اشتغال قلبه بالهموم المتفرقة القريبة البعيدة واشتغال سمعه بالأحاديث والأقاويل الملهية المنسية ، واشتغال بصره بالألوان والأشكال المطغية . قال الملك : لئن كان هذا حقا فليس ينبغى لنا أن نعمل ليلنا ونهارنا ولا نستعمل أسماعنا وأبصارنا إلا فيه ،

ولئن كان شكاً فيجب أن نعمل شغلنا فى طلب علمه حتى نعلم أحقا هو أم باطل ، وأرى كتمانك إياى هذا الأمر ما كان جميلا ، وأنى كنت بمودتك واثقا ، ولعذرك مصدقا . قال الوزير إن هـذا الأمر متقارب ما بين أوله وآخره ، وعارفـه وجاهله إذا اتفقا على ترك فرائضه والعمل للدنيا التى هى عدوة الآخرة فأقمتُ لم اعلمك هـذه المدة رأفة بك وخوفا منك كما أقام السابح على صاحبه الجـاهل بالسباحة لَمَّاً وقعا فى الغمر .

* * *

قال : فكيف كان ذلك ؟ قال : إنه بلغنا أن صاحبين كانا متصافيين أحـدهما سابح والآخر لا علم له بالسباحة ، ولا جرأة له على المـاء ، فوقعا فى الغمر فجعل السابح يعوم ليخرج من الغرق والتفت إلى صاحبه فوجده ينغمس فى المـاء ثم يطلع ، فلما رأى جهالته بالسباحة وقلة غنائه عن نفسه حثته المحافظة على أن أقبل عليه ولم يستجر أن يدنو منه مخافة أن يتعلق به فيغرقا جميعا ، فجعل يريه كيف يعمل بيديه ليهديه ، فحرك يديه مثله . فرجا حينئذ أن يخلصه فغرر نفسه فى الدنو منه حتى أمكنه من يده ثم سبح به حتى خرجا جميعا ونجيا . وكذلك أيها الملك غررت بنفسى فى هـذا لك مع علمى بقوتك وضعفى ، فلما رأيت الفرصة قـد أمكنت ؛ كلمتك بذلك أفتأذن لى أن أذكرك بهـذا الـكلام ؟ قال : نعم دائما ففعل الوزير ذلك ، فكانت العاقبـة للنجاة . قال ابن الملك ما أنا شاغل

نفسي بشيء عن هـذا السبيل ، ولقد عزمت على الهرب معك ليلا . قال الناسك وكيف ذلك ؟ تستطيع الذهاب معي وأنا ليس لي دابة تحملني ولا أملك ذهبا ولا فضة ولا أدخر غذاء ولا مسكنا ولا أستقر ببلدة إلا قليلا وكيف تقدر على صحبـة من هم كالأموات ! قال ابن الملك : كيف تجعلهم أمواتا ؟ قال لأنهم أماتوا أنفسهم البهيمية . فهم يرتاحون بالموت الطبيعي . قال ابن الملك : وعباد الأصنام يزعمون أنهم قد حصلوا على الموت كالنساك وهم يأكلون ويشربون كما تأكل النساك وتشرب فما حجتك عليهم في ذلك ؟

* * *

قال الناسك ذكروا أن رجلا كان له بستان يقوم عليه فدخله يوما متعهدا له فأبصر عصفورا على شجرة وهو يفسد ثمرها فغضب له فصاده . فلما هم بذبحه قال له ليس فيّ شيء يشبعك . فهل لك في شيء خير مما هممت به ؟ قال : وما ذلك ؟ قال تخلي سبيلي وأعلمك ثلاث كلمات إن حفظتهن كن خيرا لك مما نالك . قال الرجل قد فعلت فأخبرني بهن قال حتى تحلف لي أنك تطلقني ، ففعل . قال لا تيأس مما فاتك ، ولا تطلب مالا تدرك ، ولا تصدق بما لا يكون ، فاطلقه فطار ووقف على غصن وقال للرجل : لو علمت ما فاتك مني لعلمت أنك قد فجعت في شيء عظيم قال وما ذلك ؟ قال : لو كنت ذبحتني لوجدت في حوصلتي درة مثل بيضة الأوزة فكنت تستغني بثمنها دهرك . فلما سمع الرجل ذلك ندم على إطلاقه ، وقال له ليخدعه دع

عنك ما مضى وتعاهد صحبتى ، ولا تترك مكانك) فقد صار لكل منا على الآخر حق . فقال العصفور : ما أراك أيها الجاهل حفظت الكلمات فليس تحفظنى إن وقعت فى يدك فها أنت متفجع منى على الفائت طالب من رجعتى إليك ما لا تدرك مصدق بما لا يمكن لأن حوصلتى أصغر ما فىّ والبيضة أكبر منى وامتكم هذه يابن الملك صنعوا أصنامهم بأيديهم وزعموا أنها خلقتهم وحفظوها مخافة أن تسرق وقالوا إنها هى التى تحفظهم ، وأنفقوا عليها مكاسبهم ، وزعموا أنها ترزقهم فطلبوا ما لا يدرك ، وصدقوا ما لا يكون . وأما قولك إننا نأكل ونشرب ونلبس مثلهم فأكلنا أكل مضطر كأكل لحم الموتى وكالملك الذى حصره عدوه فى مغارة على شاطئ البحر له ولنسائه وأولاده فطال مقامهم ولم يكن لهم مخرج ولا معهم زاد فمات أحدهم وأشرفوا على الهلاك ففعلوا ذلك أترامم أكلوا أكل ضرر أو شهوة . قال : بل أكل ضرر شديد . قال هذا هو الفرق بين أكلنا وأكلهم فنحن نأكل لدفع الضرورة وكارهين وهم يأكلون مشتهين غير مضطرين . قال ابن الملك أما الأصنام فإنى لم أزل لها كارها آيسا من خيرها فأخبرنى ما أول الذى تدعونى إليه من الدين فأجابه أمران وهما معرفة الله والعمل بما يرضيه . قال كيف أعرفه قال ينبغى أن تعرفه بالوحدة والقدرة والعدلة والعظمة ، والعلم بكل شىء والعلو على كل شىء قال وما الدليل على ذلك قال الحكيم ألا ترى أنك إذا رأيت صناعة لعرفت أن لها صانعا ، وإن كان عنك غائبا . فكذلك تعرفه بما تراه من

هذه المصنوعات السماء والأرض والشمس والقمر والكواكب ودوران الأفلاك وجرى الماء وحركة الريح والنار وتدبير سائر المخلوقات أن لها خالقا وقادرا حكيما وهو العلى العظيم قال فما يرضيه منا قال أن يأتى كل واحد إلى غيره بما يحب أن يأتى إليه منه ، ويكف عنه ما يحب هو أن يكفه عنه . فإن فى ذلك عدلا ، وفى العدل للإله العادل رضى . قال : أما الآن فقد عرفتنى النقص فى دين الأصنام وفى المقام على غير الصواب . فقال إنه لا يسعك الإقامة على غير دين الله . قال وما الذى يمنعنى من الإقامة على غيره ، ويضيق على ذلك ؟ قال الجهل والعلم . قال وما ضيق الجهل وما سعة العلم فقال العلم غنى والغنى سعة ، والجهل فاقة والفاقة ضيق . قال وما الذى يحقق ذلك ؟ قال ألا ترى أن صدرك يضيق بما تجهل مما يسأل عنه وأنك لا ترجو الفرج إلا فى درك العلم بذلك قال قد رأيت من يرجو الفرج فيما لا فرج فيه ولست آمن أن أكون منهم . قال هل أراك وعرفك بهذا الرأى وخوفك منزلة أهله ؟ قال : ما خوفنيه إلا ذلك قال قد سمعت بذكر الجنة والنار ولو أن لهما معنى وضع لشىء حقيق لم يكن لهما اسما قال : لو يشاء الناطق أن يخرج المنطق على غير معنى لفعل . قال الشاعر : رب حديث باطل معقول . قال فإن كلفتنى تصديق كل معقول ، فقد كلفتنى تصديق الكذابين . قال : أنا أكلفك التصديق بمعانى الأسماء المفردة غير المؤلفة بتأليف الكذابين قال ابن الملك لقد اضطررتنى إلى الإيمان بالله ، وما جاء من عنده من

الثواب والعقاب فعد إلى التزهيد فى الدنيا . قال الناسك ليس كل أحد يستحق الزهد فيها لأنها سجن الأبرار وجنان الفجار وكيف لا يزهد فيها العارف أن نعيم الآخرة لا ينال الا بالانحلال من الارتباط بالدنيا لأنهما داران متضادتان بعمارة إحداهما خراب الأخرى ومن سعة الآخرة وكرمها أنها سهل مسلكها مفتحة أبوابها لكل من سعى فى سبيلها ، ومن ضيق الدنيا ولؤمها أنها ممتنعة على أكثر طلابها ، وأهلها أشقى بها من أهل الرفض لها وربما توسل إليها عبدها بالزيادة فى ضدها فهى تشبه مفازة معطشة مملوءة سباعا ضارية ولصوصا عادية وشياطين مردة ووعلان خاطفة وسموم محرقة . ماؤها سم قاتل ، ونباتها شجر الموت . فى وسطها بستان عليه حائط لا يرام ، وباب وثيق وفيه شجر مثمر وماء وظل ، ومن وراء تلك المعاطش من إحدى جهتيها الخصب والريف والأنس ، ومن جهتها الأخرى بحر السم يهب عليه سموم النار ، ولا يخرج من تلك المفازة فى غير هاتين الطريقين فهذه المفازة ممثول هذه الدنيا وما فيها من النصب والتعب ، والبستان الذى فى وسطها هو قليل ما فيها من اللذات الممزوجة بالمحن والمشقات ، والريف والخصب من إحدى جهتيها منقلب الأبرار فى الميعاد ، وبحر السم منقلب الفجار فى الآخرة . قال ولم يزل (بلوهر) الحكيم يتردد إلى ابن الملك أربعة شهور يعظه ويعلمه . ثم قال (بلوهر) لابن الملك إن له ولأصحابه عيدا قد حضر وأنه يريد أن يخرج إلى عيد أصحابه ليحضره معهم .

قال ابن الملك أنا أخرج معك . قال (بلوهر) إن خروجك معى مما يحرض الملك علىّ وعلى أصحابى ويبعثه على مضرة أهل النسك فنحرم سرورنا بك وسرورك بنا ، وتنقطع أنت عن حاجتك التى أنت بالغها فى السرور بإذن الله باللطف . وبقاؤك عند الملك تكفه عن أهل الدين هو عبادة لك ، ولسنا نكره الموت لكنا نكره أن نعين على أنفسنا . قال : أين تجتمعوا ؟ قال : فى برية خصيبة . قال : ما طعامكم من أى شىء ؟ قال : من نباتها وبقولها مما لا ملك لأحد فيه . فأما أن يكون لنا بساتين أو زرع أو بقر أو غنم فلا . قال : خذ فى مزودك مالا لأصحابك . قال : كيف يضل أصحابى بالمال ؟! فيئس الوافد إذاً إليهم إن أتيتهم مستوقرا لهم من الدنيا التى قد كانوا جاهدوها حتى ظهروا عليها فأتيهم عدوا ، وأجدد لهم شهوة ، فما حاجتهم إلى الاجتماع بعدو يذكرهم باطل الدنيا . فإن عادوا إليها عادوا إلى القفر والهلكة وإن لم يعودوا إليها فهل الذهب والجواهر إلا من جملة أنواع الحجارة التى لا حاجة لنا بها فى بريتنا . قال فمن أين لكم الكسوة ؟ قال : هى شديدة علينا . فإذا وجدنا ثوبا رجونا أنه آخر حاجتنا من الدنيا وكلفتنا على أهلها . قال . فخذ كسوة تتوزعوها قال : لسنا نجدد الثوب حتى يبلى ، ولا نتعجله فندخره ليوم لا ندرى أننا نبلغه أم لا قال : فمن أين لك هذه الكسوة قال هذا قشر يستأنس إليه الشيطان اتخذته وصلة إليك فسأله أن يريه كسوته ، فنزع القشر عن جلدة سوداء ممدودة على قضب ناحلة فرق لما رأى على جسده من أثر العبادة وقال له اقبل منى

كسوة لجسدك . قال : كيف أقبل لنفسى ما عدلته عن أصحابى شفقة عليهم ولو كان خيرا آثرتهم به ؟ قال فادفع إلىّ ثيابك هـذه وخذ عوضا عنها فإنى أحب أن يكون عندى منك عهدا . قال استبدالى جديدا ببالى مما يبسط آمالى بقدر ما بينهما من البقاء فليكن ما تعطينى أياه شبيها به فى البلاء ، فاستدعى له بثوب من ثيابه وأخذ ثوبه وعاهده أن يرجع إليه قبل الحول إن لم يمت أو يغلب . فأجاب ، وودعه ودعى له وانصرف ، وأقبل ابن الملك على العبادة بالسر . فكان يخلع ثيابه ليلا ويلبس ذلك الثوب ، ويصلى فيه إلى الصباح وكان أمين الملك على ولده أنكر دخول (بلوهر) على ابن الملك فاصطنع حيلة وعرف الملك بذلك فامتلأ الملك غضبا وجزعا ثم راجع نفسه بالأناة لما رجاء بالحيلة لابنه فأحضر معبرا ساحرا ، وقال الذى دهانا الأمر الذى لم نزل نحذره ونخافه فى ولدنا فما الرأى ؟ فقال الساحر : أول الرأى طلب هـذا الرجل يعنى (بلوهر) فإن ظفرنا به ضربته بحجتنا على أهل النسك بما أحرموا أنفسهم من الرزق الذى أكرمهم الله به لينالوا منه ويشكروه عليه ، وما قطعوه من النسل الذى لا تعمر الأرض إلا به ويعتد الحمد لله فإن بلغنا بذلك ما يستميل به ابن الملك ويعرف به خطأه فقد ظفرنا بالمقصود والا عاتبناه ثم لبست لكم صورة الناسك وظهرت لكم فيها حتى لا ينكر ابن الملك من عهد صاحبه شيئا ثم كلمته على لسان نفسه بتكذيبه ، واعترافه بضلالته فيما ادعاه من ترك عمارة الدنيا فإن دواءه ذلك وإلا رأيت فأنفذ الملك أمرا .. (وهنا تنتهى المخطوطة) .

ألف ليلة وليلة

من العبث حقا أن يزعم باحث أن القصص الشعبى ملك خالص لأمة بعينها فنحن نعلم أن تاريخ الإنسانية لم يستطع حتى اليوم إثبات قيام حضارة خاصة لشعب ما دون أن تكون متأثرة بعناصر أخرى أجنبية ، وأن هذا المزج بينها وبين العناصر الغريبة شرط لا بد منه لقيام الحضارة وتقدم الإنسانية ، فمن المستنكر أن ننتظر ظهور حضارة رفيعة عند أمة من الأمم دون أن تتأثر هذه الحضارة بالتراث القديم للأمة أولا وثقافات الشعوب الأخرى التى تزاوجت مع ثقافة الشعب الناهض ثانيا ، وبمقدار حيوية الشعب وقوته الخالقة يكون أثره فى خلق الحضارة الجديدة وتوجيهها . وحيث يصفو الجنس ويبتعد عن التزاوج مع الأجناس الأخرى بسبب الظروف الجغرافية أو العوامل الاجتماعية لن ينجح الشعب فى خلق حضارة عالمية أو ثقافية رفيعة . ولا أدل على ذلك من العشائر البدائية النازلة فى أواسط افريقية أو شمال أوربا فهى نقية الجنس بعيدة عن الاختلاط بغيرها لذلك تخلفت عن سائر الشعوب بخلاف الحال فى بلاد ما بين النهرين أو حوض وادى النيل أو وسط أوربا أو الولايات المتحدة الأمريكية حيث تمتزج العناصر الجنسية المتعددة وتتزاحم الطبائع والغرائز المختلفة .

فإذا كان الأمر كذلك فكيف نتطلب من التراث الأدبى الشعبى الإسلامى أن يكون عربيا خالصا ! إن مدلول كلمة إسلامى يغاير تماما مدلول كلمة عربى بل أن مدلول كلمة عربى فى صدر الإسلام ليغاير مدلول كلمة سامى والعلاقة بين اللفظين كما نعلم كعلاقة الجزء بالكل . إن حضارتنا الإسلامية حضارة ورثت العرب وسائر الأمم الساميـة الأخرى التى عاشت فى أطراف الجزيرة وكونت مع مرور الزمن دولا ، وخلقت حضـارات وثقافات كالبابليين الأشوريين والآراميين والإسرائيليين والمعينيين السبائيين وغيرهم فهذه الشعوب العربية جنسا والتى خضعت لعوامل مغايرة لتلك التى خضعت لها شعوب قلب الجزيرة وأطرافها الغربية لم تمت ولم تنقرض ل خلفت لنـا علاوة على اللغة والأدب قصصا وقصصا رائعا حقا ، يكفى هنا أن أشـير إلى ما جاء فى الكتاب المقدس خاصة هذا لجزء الخاص بالإسرائيليين حيث نقرأ أمثال اسـتير ، وروث ، يوسف ، وغيرها التى أشار القرآن الكريم إلى بعضها فى أكثر ن موضع .

وغير العرب وسكان الجزيرة ورثت الحضارة الإسلاميـة أيضا ثقافات الشعوب الإيرانية والمغولية والحاميـة ، وعن طريق البلاد شرقية المطلة على البحر الأبيض المتوسط اقتبست كثيرا من عناصر الهللينية إما مباشرة أو عن طريق الترجمة لذلك يحق للباحث ن يقول إن الحضارة الإسلامية حضارة عالمية وإن كان الإسلام قد

وجهها التوجيه الذى رآه صالحا لها وللإنسانية . وهذه هى الميزة التى تميزها عن الحضارات الأخرى .

وإذا أردنا أن نضرب مثلا واضحا جليا لهذه الحضارة وعناصرها ، ونبين مقدار تغلغلها فى حياة العالم الإسلامى الشعبية وتوجيهها للسواد الأعظم من قراء العربية وجب علينا أن نعرض لألف ليلة وليلة فهو سفر لم يضعه شعب بل شعوب ، ولم يؤلف فى عصر بل عصور ، ولم يدون فى عاصمة بل عواصم ، ولم لا يكون هذا السفر كذلك ! ألم يكن ملكا لسائر الشعوب التى استظلت براية الإسلام ؟ لذلك اتسع صدر ألف ليلة وليلة لمختلف الطبقات التى كان يتكون منها المجتمع الإسلامى ففيه نقرأ عن التاجر والصياد ، الوزير والملك ، الحكيم والحمال ، الخياط والحلاق ، الحشاش واللص ، الجندى والصيرفى ، الجزار والمحتال ، الدلالة والصائغ ، الاسكافى والخباز . كما نقرأ عن القضاء ، والجهاد ، وحياة الأسواق وتجارة الرقيق ، والحياة فى الحريم والبيوت العامة ، وشيئاً عن القوافل واختراقها الصحارى ، والأسفار فى البحار والأهوال التى قد يتعرض لها المسافرون ، وحتى الأديان وجدت طريقها إلى هذا السفر العظيم إذ نجد فيه حديثا عن اليهودى والمسيحى والمسلم والمجوسى .

طبيعى إذاً أن نجد فى هذا الكتاب عناصر فارسية وهندية ومصرية وعربية وعناصر أخرى قد يكشف عنها البحث لكن ليس معنى هذا أن هذا الكتاب أو هذا الجزء من الكتاب من

وضع الفرس أو الهنود أو المصريين أو غيرهم كما ذهب بعض الباحثين . فقد ذكرت من قبل أن للقصة عناصر وأن هـذه العناصر مشتركة بين سائر البشر أحيانا فتكرارها فى قصة من القصص لن يدل مطلقا على أن هذا الشعب أو ذلك قد أخذها عن آخر وحتى لو كان هـذا العنصر فى القصة وليد بيئة خاصة ألا وهى البيئة الفارسية أو الهندية مثلا فإن العقلية الإسلامية كثيرا ما عملت فيـه ما يعمل المزج الكيماوى فى العناصر الموجودة إذ يحولها إلى شىء جديد وهذه هى سـنة الطبيعة ، وجوهر الوجود ولدينا الكثير من الأمثلة لتأييد هذا الرأى .

قدمت بهذه المقدمة لأن هناك نفراً من العلماء الأجانب ما كاد يطلع على الترجمة التى نشرها (أنطوان جلند) عام ١٧٠٤ م حتى ذهب يفترض مختلف الفروض حول هـذه القصص وأخذ يشكك القراء فى عبقرية العربى وخياله الخصب وهذا ليس بمستبعد على الغربيين فقد كانوا فى ذلك العصر خاصة يحملون كل ضغينة وحقد للعنصر السامى وكانوا يهاجمونه بمختلف الوسائل ، وشق عليهم أن تكون هذه الثروة القصصية فى اللغة العربية وثمرة من ثمار الحضارة الإسلامية لذلك اتجه بعض علماء السنسكريتية من الأوربيين فى ذلك الوقت إلى القول بأن ألف ليلة وليلة ترجمة لقصص هندية والهنود آريون فهذه الثروة إذاً آرية ، وكان على رأس هذه الجماعة من العلماء (شليجل) و (جلد ميستر) . ومن ثم ظهرت جماعة أخرى من الأوربيين أيضا

ومن المهتمين بالدراسة الهندية أمثال (فيبر) و (جراى) و (شربنتييه) وانضم إليهم بعض علماء اللغات السامية أمثال (ملر) (أوسترب) و (ليتمان) وقرروا رأيا وسطا وهو أن هذه القصص عربية فارسية أو بتعبير آخر سامية آرية وإن اعتقد (اوسترب) أن بعض لياليها فارسية هندية كقصة حسن البصرى . وغير هـذين الفريقين من العلمـاء نجد فريقا ثالثا على رأسه (كوسكين) و (برزلسكى) يقصر هـذا العنصر الهندى فيها على بعض الحواشى والتعليقات الواردة فى القصص مثل عبارة (وكيف ذلك) فهى الهندية (كاثام اتات Katham etat) ، وطريقة صياغة القصة ، والانتقال منها إلى أخرى ، ويرى هذا الفريق أيضا أن من العناصر الهندية الواضحة العبارات الخاصة بالمرأة وخيانتها لزوجها أو قصص الحيوان والسندباد وغيرها . وأنا أزعم أن علماء الصينيات واليابانيات مثلا لو وجهوا عنايتهم إلى ألف ليلة وليلة لطلعوا علينا برأى جديد حول العلاقـة بين قصصنا وقصصهم .

ألف ليلة وليلة لست فى حاجة أن أتحدث عنه للقارئ من حيث محتوياته فهو قصصنا ونستطيع أن نقرأه فى لغتنا لـكن الشىء الذى أحب أن الفت النظر إليه هو أن بحثا مبتكرا يعالج هـذه الليالى ويسامح صاحبه فى الـكشف عنه وعن عناصره وأصوله ، فى اللغة العربية ، لم يظهر بعد . وآخر ما كتب عنه فى مصر ما هو إلا هـذا العرض وذلك التلخيص لإبحاث بعض العلماء الأجانب ، ومما

يؤسف له حقا أن حتى هذا لم يخل من الاضطراب ، وتنقصه الدقة ، ويعوزه التحقيق . وهو بالرغم من ظهوره عام ١٩٤٣ إلا أنه لم ينقل القارئ العربى إلا إلى حيث وقف الأوربى من عشرات السنين . ومرجع هـذا النقص عدم المران على البحث الدقيق من ناحية وقلة وسائل الفحص من ناحية أخرى . ويكفى أن يطلع القـارئ فى خاتمته على هذه العبارة مثلا (وهناك أيضا نواح مختلفة فى هـذه القصص لم يتسن لنا درسها لقـلة ما وجدنا من أسس نستطيع أن نعتمد عليهـا من جهود سابقة تنظم أمر الـكتاب بعض التنظيم أو تصور حاله بعض التصوير . . . ونحن لا ندعى أننا قـد وصلنا إلى نتـائج هامة أو أحكام مقررة فى الموضوع . . .) ليدرك النقص ويلمس العجز .

والواقع أن الجهود السابقة التى تنظم أمر الـكتلب بعض التنظيم أو تصور حاله بعض التصوير قد بذلت فعلا ، وما زالت المجلات العلمية من سامية وإيرانية وهندية تطلع علينا بين الفينة والأخرى بالبحوث المستفيضة حول هذا الموضوع ثم إن هذه البحوث ليست وقفا على علماء العربية من المستشرقين بل كثيرا ما نجد غيرهم من رجال السنسكريتية والإيرانية يطلعون علينا بالآراء الجديدة التى تلقى ضوءا شديدا على ألف ليلة وليلة هذا فضلا عن الـكتب الـكثيرة التى كتبها أناس عكفوا على الدرس وأدوا الأمانة العلمية أحسن أداء . ويكفى أن يطلع الإنسان على المجلد الثالث من الترجمة الألمانية لألف ليلة وليلة

للعلامة (أنوليمان) أو على تاريخ الآداب الهندية للأستاذ (فنترنيتز) أو على البحث الذى تقدم به (أوسترب) عام ١٨٩١ حول هذا السفر للحصول على أجازة الدكتوراه من جامعة كوبنهاجن ، ومقاله القيم فى دائرة المعارف الإسلامية ، وملحق (مكدونلد) ، ومجلة المستشرقين الألمان ، وغيرها ، وغيرها ليرى إلى أى حد كان المشرف على هـذا البحث سخيا لما قبله كموضوع للمناقشة للحصول على لقب جامعى ولم يضف إلى معلوماتنا أكثر مما جاء به بحث (أوسترب) عام ١٨٩١ م.

ولعل آخر بحث ظهر فى هـذا الموضوع هو هذا الذى طلع به العالم (ل . السدورف) عام ١٩٣٥ ونشره فى مجـلة المستشرقين الألمان وعنوانه « شاهدان جديدان على الأصل الهندى لألف ليلة وليلة » وفى هذا البحث يحدثنا عن الخلاف القائم بين علمـاء السنسكريتية ، الذين يؤمنون بفكرة الأصل الهندى ، حول تحديد زمان ومكان ونوع الأدب الذى قد يكون هو المصدر الذى أخذت منه بعض ليالى ألف ليلة وليلة . ففريق من هؤلاء العلماء وعلى رأسه (فنترنيتز) يقول إن الوطن الأصـلى هو الهند الدنيا حيث الأدب السنسكريتى أو البركريتى ، ويعارضه فريق آخر يتزعمه (برزيلسكى) يزعم أن الوطن الأصلى هو الهند القصوى ومن هذه البلاد انحدرت هـذه العناصر الهندية التى تكوّن مع المجموعة المعروفـة باسم (فتالبنسفيمستى Vetalapancavimsati)السيامية ضربا من الأدب ينتمى فى الواقع إلى النوع المعروف باسم (سنيمفرا Svayamvara)

والذى يلعب دورا هاما فى الأدب السنسكريتى خاصة بين السكان الأصليين الذين كانوا مقيمين فى الهند قبل نزوح العنصر الآرى إليها .

أما الشاهدان الجديدان اللذان جاء بهما (السدورف) لتأييد رأيه فعبارة عن قصتين وردتا فى (فسد فهندى Vasudevahindi) ا (سنغداس Sanghadasa) ضمن نص بركريتى نشر فى (بها فنجار) عام ١٩٣٠ — ١٩٣١ . ويرى الباحث أن الشبه بين القصتين الهنديتين وبين ما جاء فى ألف ليلة وليلة قوى جدا حتى أنه يرجح أن القصتين العربيتين ترجمان إلى هذا الأصل الهندى . أما القصة الأولى كما جاءت فى النص الهندى فتلخص فيما يلى .

ثم طلبت بناء سفينة ، ولما تمت ، حملتها بالبضائع ، وعينت لها الخدم والملاحين ، وأرسلت إلى عمى (سرفرتا) أخبره عن حالى وأنى بخير وحصلت على خطاب توصية ملكى . ولما هب النسيم وأدركت أن الجو صالح للإبحار صعدت إلى السفينة وأحرقت البخور، ومن ثم أقلعت السفينة إلى الصين ، ولما بلغتها قمت ببعض الصفقات التجارية ، وعقب ذلك أبحرت إلى سومطرة حيث زرت مدن الشرق والجنوب مثل (كلبورا) و (يفندفيفا) ، ومن ثم إلى سرنديب وإلى قوم البرابرة ويونان الغرب حيث باشرت أعمالى التجارية وربحت كثيرا من الأموال التى استخدمتها فى شراء بضائع أخرى عادت علىّ بأرباح مضاعفة . وحدث أن السفينة لما كانت على مرأى من شاطئ (كشياورس) هبت عاصفة شديدة حطمت السفينة

ولم أستطع النجاة إلا بعد جهد جهيد إذ ألقتنى الأمواج بعد عراك شديد بينى وبينها دام سبعة أيام على شاطىء (أودومبرافتى) فجلست تحت شجرة منهوك القوى خائر العزيمة من هول ما قاسيت ورأيت .

وفى تلك اللحظة حضر راهب متسول[1] فقادنى إلى قرية حيث يسكن ، وفى كوخه أخذ يعنى بى وبجسدى ، ومن ثم أخذ يسألنى عن حالى ، وكيف وقعت لى هذه النكبة وألمت بى هذه المصيبة فقصصت عليه قصتى فصرخ صائحا أخرج من كوخى أيها الشقى ، فهممت بالخروج فاستدعانى ثانية وقال لى : بنى قد نهرتك وأسأت إليك لأبعث فيك شيئاً من الاحترام لشخصى إنك مجنون كيف تلقى بنفسك فى التهلكة لأجل المال ! إن كانت هذه أمنيتك والمال غايتك فأنا كفيل لأن أغنيك دون تعب ومشقة وذلك فى مقابل خدمتك لى وبعد ذلك أدخل الراهب التاجر حماما وأمر أحد الخدم أن يباشر غسل جسده ثم قدم له ماء أرز فشربه وهكذا قضى التاجر عدة أيام .

والذى حدث بعد ذلك أن أوقد الراهب نارا وقال للتاجر أنظر ومزج حديدا بما كسير ، وألقى بالمزيج فى النار فخرج ذهبا نقيا ومن ثم التفت الراهب إلى التاجر وسأله هل رأيت يا بنى ؟ فأجابه التاجر رأيت عجبا . فقال له الراهب إنه كيماوى ماهر يستطيع أن يصير

---

(١) فى قصص (بيدبا) تمثل الرجل الشرير

الحديد ذهبا ، وإنه يعتبر كما لو أنه ابنه الحقيق ولما كان هذا الابن مغرما بجمع المال فإنه سيعلمه هذه الحكمة . لكن يتظاهر الراهب بأن كمية الإكسير التى معه قليلة لا تكفى ويعرض على التاجر أن يرافقه إلى مصدر هذا الإكسير إن رغب فى الحصول عليه ، فأظهر التاجر استعداده ، ورحب بالفكرة ، ووضع نفسه تحت تصرف الراهب .

وبعد ذلك نجد القصة الهندية تذهب بعيدا وتحدثنا كيف أن الراهب والتاجر تركا القرية ليلا وواصلا السير حتى أقبلا على غابة ملأى بالوحوش والأفاعى مما أضطر الرفيقين إلى التردد فى السير فيها نهارا ، لذلك قررا اجتيازها ليلا حتى لا يتعرضا لأذى هذه الوحوش . وبعد مسيرة ليال كثيرة بلغا بئرا عظيمة مغطاة بالعشب والحشائش ، وهناك وقف الراهب وطلب إلى التاجر أن يستريح . وبعد فترة أخرج الراهب سترة من الجلد ولبسها وتظاهر كما لو أنه يرغب فى النزول إلى قاع البئر حيث يوجد الإكسير ، فاعترضه التاجر وأبدى رغبته فى القيام بهذه المهمة لأنه حريص على معرفة مكان الإكسير والحصول على أكبر كمية ممكنة منه . فأخذ الراهب يصف له البئر حيطانها وقاعها وكيف أنها تتسع كلما أتجه النازل نحو القاع ، وفى وسطها حوض من الماس وبه يوجد هذا الإكسير العجيب الذى يصير الحديد ذهبا . وكان الراهب يلاحظ على وجه التاجر علامات الفرح والسرور كما أدرك من حركاته رغبته الشديدة فى النزول

فألبسه السترة الجلدية وأعطاه مصباحا سحريا وأجلسه على مقعد مربوط بحبل ودلاه . فلما بلغ قاع البئر ملأ التاجر قنينة من الإكسير ووضعها على المقعد وأخذ الراهب يجذبها إليه وما كاد يصل إلى غايته حتى أخذ المقعد والحبل وولى . أما التاجر فإنه أخذ يصيح ويستغيث ولا مغيث وأيقن أن الراهب قدمه قربانا لحاجته .

أدرك التاجر أنه سيموت ضحية الطمع فى الحصول على المال والرغبة فى الثراء ، واشتد خوفه وفزعه عندما رأى نور مصباحه السحرى أخذ يخبو وأصبحت البئر ظلاما فى ظلام . وبينما التاجر يتلفت ويتحسس على ما حوله إذ سمع صوتا خافتا لضحية أخرى من ضحايا هذا الراهب ، سمع صوت رجل يكاد يلفظ النفس الأخير فسأله هل من وسيلة إلى النجاة ؟ وبعد برهة أجابنى الرجل : وقت الظهيرة تأتى سحلاة كبيرة إلى هنا لتشرب وتخرج ولولا ضعفى وخوفى منها لتعلقت بذيلها ونجوت فإن أردت لنفسك السلامة فتعلق بذيلها ، وهى كفيلة لأن تخرجك من هذه البئر : وقد كان ذلك . فإنى ما كدت أبصر السحلاة خارجة حتى تعلقت بذيلها وأخذت تسحبنى على جدران البئر صاعدة حتى خرجت ونجوت . لكن لم أستطع الاهتداء إلى الطريق ، وبينما أنا أفكر فى المال والمصائب التى جرها على إذ بثور عظيم يهاجمنى فوليت منه هاربا وتسلقت صخرة عالية فنطحها الثور فخرجت حية لدغته فى خلفه وقضت عليه ، ونجوت أنا .

هذه هى خلاصة القصة الهندية الأولى ويرى (السدورف) أنها الأصل الذى أخذت منه قصة حسن البصرى فى ألف ليلة وليلة . ولم يكن هو أول من فكر فى هندية هذه القصة بل قد سبقه (أوسترب) فى بحثه بدائرة المعارف الإسلامية إذ قال عنها إنها هندية فارسية ، وأهم عناصرها عنصرا سرقة الريش والحيلة التى استطاع بها البطل الانتصار على الرجال الذين كانوا يتنازعون الميراث ليعود بحبيبته الهاربة . فهذان العنصران هنديان .

ويذهب (السدورف) بعيدا ويحاول أن يقارن بين مقومات هذه القصة الهنديه وبين تلك التى نجدها فى قصة حسن البصرى ؛ فالراهب هنا يقابل العجمى المجوسى ، والتاجر الهندى هو حسن البصرى ، والرغبة فى الثراء وتحويل الحديد إلى ذهب والمغامرات مشتركة فى القصتين ، وأن المجوسى كلما شعر أن الإكسير كاد ينفد بحث له عن ضحية أخرى وكذلك الحال كان مع الراهب ، وأن هذه الضحية يجب أن تقدم قربانا حتى لا يعلم أحد مكان هذا الإكسير . وفى القصتين نقرأ أيضا المعاملة السيئة التى عومل بها كل من حسن والتاجر الهندى .

ولكن كما أن هناك أوجه شبه بين القصتين إلا أننا نلحظ بينهما فروقا أيضا ، ففى ألف ليلة وليلة يوجد الإكسير فوق جبل السحاب ، وفى الهندية فى أعماق بئر ، كما أن حسنا بلغ قمة الجبل عن طريق الطائر المعروف باسم الرخ وذلك لأن المجوسى جاء بنجيب من النجائب

وذبحه ، وسلخ جلده وأدخل فيـه حسنا بعد أن أعطاه سكينا يشق به الجلد بعد أن يبلغ القمة وخاط الجلد وطرحـه أرضا فجاء الرخ وحمله إلى الجبـل . فرقا آخر نجده بين القصتين أيضا وهو فرق جوهرى يتعلق بالإسكندر إذ بينما نجده فى إحدى روايات ألف ليلة وليلة عبارة عن عشب ، وفى رواية أخرى عبارة عن مسحوق إذ به فى القصة الهندية عبـارة عن سائل . أما الأدلة الأخرى التى ساقها بعض الباحثين للتدليل على هندية القصة أو فارسيتها أو (هنديتها فارسيتها) معا أعنى مسألة الريش التى أشار إليها (أوسترب) فى دائرة المعارف الإسلامية وجرى خلفه آخرون فليست بالحجة القوية والدليل الواضح على إثبات هندية القصة ، وذلك لأن عنصر الريش هـذا ليس قاصرا على الهند فقط بل نجده عند شعوب أخرى كثيرة ليست آسيوية فحسب بل أمريكية وإفريقية أيضا ، وقبل أن نعرض له عند مختلف الشعوب نلخص ذكر القصة العربية له ، فنحن نعلم من قصة حسن الصائغ البصرى هـذا أنه بعد أن نجا من مكيدة المجوسى جاء إلى قصر عظيم لم يملك مثله كسرى ولا قيصر ، ولمـا دخله وجلس فيه أخذ يتأمل ما حوله ، وبينما هو كذلك إذ بعشرة طيور قد أقبلت من جهة البر قاصدة ذلك القصر ، وتلك البحيرة ، فعرف حسن أنها تقصد البحيرة لتشرب من مائها فاستتر منهـا خوفا من أن تراه فتطير ثم إنها نزلت على شجرة عظيمة ودارت حولها ونظر حسن من بينها طيرا عظيما هو أحسنها وأجملها وبقية الطيور حوله

تخدمه ، فتعجب حسن من ذلك المنظر ، وصار ذلك الطير ينقر التسعة بمنقاره . وبعد ذلك جلست الطيور على سرير وأخذ يشق كل طائر جلده بمخاليبه ويخرج منه فإذا هو ثوب من الريش وقد خرج من الثياب عشر بنات أبكار يفضحن بحسنهن بهجة الأقمار ، فلما تعرين من ثيابهن نزلن البحيرة واغتسلن وأخذن يلعبن ويتمازحن وكانت أجلهن ترميهن وتغطسهن فيهربن ويظهرن كثيرا من آيات الحسن والدلال . فشغف حسن بهذه الغادة ووقع فى شراك هواها . ثم بعد ذلك خرجن جميعهن ولبسن أثوابهن الريش فصرن طيورا كما كن وعدن من حيث أتين . أما حسن فقد قرر الحصول على هذه الغادة الطائرة واستعان بالآنسات اللواتى يقطن القصر الذى نزل به فأخبرنه أن هذه الغادة ما هى إلا بنت ملك من ملوك الجان العظام ، وقد ملك أبوها على كثيرين من الإنس والجن ، وأن هذه الفتاة على جانب عظيم من الشجاعة والفروسية وسعة الحيلة وأما البنات اللواتى معها فهن وصيفاتها ، وهذه الجلود الريش التى يطرن بها إنما هى صنعة سحرة الجن وإذا أراد حسن أن يملك هذه الصبية ويتزوج بها فليتربص لها فى هذا المكان لأنها تحضر فى أول كل شهر ، وإذا ما خلعت ثوب الريش فليسرقه دون أن تراه فتتعذر عليها العودة إلى بلادها ، وقد فعل حسن ذلك ونجح فيه . . . فمن تلخيص ما جاء فى قصتنا العربية حول ثوب الريش نخرج نحن فى الواقع بعنصر آخر يتصل بهذا اتصالا وثيقا أعنى الطائر الآدمى أو الآدمى

الطائر فهذا العنصر قديم جدا ونجده عند مختلف الشعوب ، وما زالت بعض قبائل الهنود الحمر فى شمال أمريكا تعتقد فيه وتؤمن به وما قصة سليمان وملكة سبأ إلا صدى لمثل هذا العنصر . ويحدثنا علم تاريخ الأديان عندما يعرض لقصة الخلق عند الشعوب الهندية الحمراء فى شمال ووسط كاليفورنيا حديثا ممتعا عن خلق الإنسان ؛ فهو إما من عصى وإما من طين وإما من ريش . وعند قبائل (بومو) الشرقية نجد الإنسان قد خلق إما من ريش وإما من عصى أو حجارة أو شعر . وفى أسطورة اليوكى نجد الكائن الأعلى يظهر إلى الوجود كالآتى : فى البدء كان يوجد الماء وعلى سطح جزء منه كانت توجد رغوة عليها ريش ومن هذا الريش (رمز الخفة والنبوغ) خرج صوت وغناء . ولم يقف عنصر الريش عند هذا الحد بل نجده وسيلة من وسائل الزينة التى تفرضها الطقوس الدينية عند بعض القبائل ، فالآدمى الطائر أو الريش كمصدر من مصادر الوجود ومظهر من مظاهر القوة عنصر عالمى وإن تنوعت النظرة إليه وتطورت عند بعض الشعوب حسب حظها من الثقافة ونظرتها إلى الوجود . ومالى أذهب بعيدا والدهماء فى مصر ما زالت تعتقد فى الريش الموجود فى رأس الهدهد وقوته السحرية .

وما قلته عن الريش استطيع قوله عن الحيلة التى انتصر بها البطل ونال حبيبته .

* * *

أما القصة الثانية التى ساقها (السدورف) والتى أدعى أن أصلها هندى فتتصل بالطيران ، والطيران كما نعلم رغبة إنسانية قديمة لذلك لا نكاد نقرأ قصة شرقية أو غربية إلا ونجد فيها شيئاً عن إنسان طائر أو حيوان طائر أو مركبة طائرة أو بساط طائر أو . . . وقد وردت هذه الفكرة أيضا فى قصصنا العربى خاصة فى ألف ليلة وليلة ؛ ففى الليلة السابعة والخمسين بعد الثلثمائة نقرأ شيئاً عن حكاية الحكماء أصحاب الطاووس والبوق والفرس ، وهى تلخص فى أنه كان فى قديم الزمان ملك عظيم وبينما كان جالسا دخل عليه ثلاثة من الحكماء مع أحدهم طاووس من ذهب ، ومع الثانى بوق من نحاس ، ومع الثالث فرس من عاج وأبنوس ؛ فقال لهم الملك : ما هذه الأشياء ومامنفعتها ؟ فقال صاحب الطاووس منفعة هذا الطاووس أنه كلمامضت ساعة يصفق بجناحيه ويزعق . وقال صاحب البوق : إنه إذا وضع هذا البوق على باب المدينة ودخلها عدو زعق . وقال صاحب الفرس : إنه إذا ركبها إنسان فإنها توصله إلى أى بلاد أراد . فطلب إليهم الملك أن يثبتوا صحة ماقالوا ، فجرب الطاووس فوجده كما قال صاحبه ، وجرب البوق فوجده كذلك ، ومن ثم تقدم ابن الملك ورغب فى أن يجرب الفرس فركبها فطارت به . ومن ثم تستمر القصة فتحدثنا كيف أنه نظر فى وسط مدينة عظيمة قصرا شاهقا فقرر أن ينزل فوقه فأدار زرا خاصا فأخذ الفرس يهبط تدريجيا حتى نزل مستويا على سطح القصر وأخيرا تبين له أن هذا القصر لبنات ملك المدينة ،

فتقوم علاقات بينه وبينهن وعلم بها الملك فقرر أن ينتقم منـه ، فلم ينقذ ابن الملك إلا هذه الفرس . هـذا ما كان من أمر ابن الملك أما ما كان من أمر والده فإنه حزن لفراقه حزنا شديدا وأمر بسجن الحـكيم الذى صنع هـذه الفرس . وحدث أن عاد ابن الملك وأمر باطلاق سراحه وأجزل له العطايا ، إلا أن الملك لم يزوجه ابنته الثالثة كما فعل مع الحـكيمين الآخرين لذلك حنق على الملك وفـكر فى الانتقام ، وكان أن استرد فرسه وأغوى الفتاة التى أحبها ابن الملك وأخذها معه . ومن ثم نقرأ كيف وقع الحـكيم والفتاة والفرس فى قبضة ملك جائر وكيف أن ابن الملك الذى يحبها أقبل وخلصها واستولى على الفرس التى أمر والده بتكسيرها بعد ذلك .

هـذه هى خلاصة القصة العربيه التى يدعى كل من (بنفى) و (اوستروب) أنها هندية فارسية وأنها تتصل اتصالا وثيقا بهذه القصص التى يرد فيها عنصر الفرس التى تطير والتى ترجع إلى القصة الهندية المعروفة باسم (بنكاتنترا) .

أما القصة الجديدة التى يذكرها (السدورف) والتى يعتقد أنها أصل القصة العربية فتلخص فى أنه كان يجلس على عرش مدينة (تامرليبتى) ملك يدعى (ريبوادمنا) وكان ينادمه تاجر غنى ، وكان يعيش فى نفس المدينة نجـار فقير مات عن طفل لم يرث إلا الفقر والتعب والهم والحزن . وكان هـذا الطفل يقتات من قشر الحبوب لذلك أطلق عليه اسم (كوكسا) . وحدث أن ابن التاجر الغنى جهز

يوما مركبا وملأها بالبضائع المختلفة ، وأراد الإبحار بها إلى بلاد اليونان لبيعها ، وفى اللحظة الأخيرة قرر أن يأخذ معه (كوكسا) هذا ، وكان له ما أراد . أقلعت السفينة ووجهها الملاحون حيث شاءوا ، وبعد زمن ما بلغت بلاد اليونان وألقت مراسيها ، وخرج ابن التاجر و (كوكسا) ومن معهما يحملون الهدايا إلى ملك اليونان فى الوقت الذى أخذ فيه التجار يعقدون صفقاتهم التجارية .

وتذهب القصة فتحدثنا أن (كوكسا) هذا توجه إلى بيت تجار فى المدينة وقضى يومه هناك فرأى أن النجار يعلم أبناءه مختلف الحرف إلا أن الأولاد انصرفوا عن والدهم ولم يتقنوا شيئاً . فما كان من النجار ، الذى تنبه إلى يقظة (كوكسا) ولمح فى عينيه الذكاء والفطنة ، إلا أن أبدى اهتماما مشكورا معه وعرض عليه أن يعلمه صناعة النجارة ويقرب إلى ذهنه دقائقها ، ويطلعه على أسرارها .

وما كادت السفينة التى أقلته من الهند تستعد للعودة إلا وكان (كوكسا) قد أجاد هذه المهنة ونبغ فيها .

عاد (كوكسا) إلى الهند وهو يعلم أن الفقر ينتظره ، ففكر فى عمل شىء يلفت النظر إليه ويضطر الملك إلى الاهتمام به فصنع حمامتين كان يرسلهما يوميا إلى مخازن أرز الملك وتأتيان له ببعض هذا المحصول فتنبه الحراس إلى هذه الحادثة وأدركوا أن المحصول أخذ فى النقصان ، فخشوا غضب الملك وأخبروه عن الحمامتين اللتين تأتيان كل يوم إلى المخازن وتنقلان المحصول إلى بيت (كوكسا) . فلما تحقق

الملك من هذا الحادث أرسل وطلب إحضار (كوكسا) فلما مثل بين يديه وقص على الملك قصته أجزل له العطاء وطلب إليه أن يصنع له مركبة تطير فى الهواء ، وقد كان إذ لم يمض زمن طويل إلا وكان قد أعد (كوكسا) المركبه ، وصعد فيها مع الملك وطارا فوق أماكن مختلفة ، وشاهدا كثيرا من عجائب الكون والمخلوقات .

ولما رأت الملكة هذه المركبة وعلمت بقدرتها على التحليق فى الجو ألحت على الملك فى الطيران معه ومع (كوكسا) رغما من أن الأخير أخبرها أن المركبة لا تتسع إلا لاثنين فقط ، وإنها لن تقوى على الطيران بثلاثة ، ورغما من كل هذا ومن تحذيرات الملك إلا أنها تشبثت برأيها وركبت المركبة التى لم تكد تنطلق فى الجو إلا وتقطعت حبالها وهوت بركابها وإن لم يصب أحد بأذى . ترك (كوكسا) الملك والملكة وتوجه إلى مدينة (تسالى) لإحضار بعض أدوات النجارة لإصلاح المركبة فقصد نجارا ورجاه أن يعطيه قدوما فتردد النجار لأنه كان مهتما بعمل مركبة للملكه فما كان من (كوكسا) إلا أن تناول المركبة ، وفى زمن قصير جدا أتم بناء المركبة فاندهش النجار ، وعلم منه أنه (كوكسا) الشهير فرجاه النجار أن ينتظر حتى يأتيه بقدوم من منزله وتوجه وأخبر ملكه (كاكينجا) أن (كوكسا) قد حضر إليه وأنه فى منزله ، فطلب الملك إحضاره إليه ومنحه كثيرا من العطايا . ومن ثم سأله عن قصته وعن سبب حضوره فأخبره ما حل بالمركبة الطائرة وما كان من أمر الملك

(ريبودمنا) وزوجه . ولما كانت العداوة بين الملكين مستحكمة أرسل (كا كينجا) وأحضرهما إليه وضم الملكة إلى حريمه ، وعامل الملك معاملة الأسرى . أما (كوكسا) فقد كلفه (كا كينجا) بتعليم الأمراء فن النجارة وسرها فتردد (كوكسا) إلا أن الملك اضطره إلى ذلك اضطرارا فصنع (كوكسا) فرسين تطيران فركب كل أمير فرسا وطارا بينما كان النجار نائما فلما استيقظ (كوكسا) وعلم بذلك غضب لأنه يعلم أن الأميرين لا يحسنان استخدام الفرسين ، ورجح أنهما لن يعودا ثانية فلما ترامى هذا الخبر إلى والدهما حنق على (كوكسا) وأمر بإعدامه . فلما أيقن النجار أن الانتقام لاحقه فكر فى الثأر لنفسه قبل أن يلقى حتفه فصنع مركبة مستديرة ، وقال لسائر الأمراء اجلسوا فيها ولما أنفخ فى البوق اضغطوا جميعكم على الآلة الموجودة فى الوسط فترتفع بكم المركبة إلى كبد السماء ولما سيق النجار إلى الإعدام نفخ ، وضغط الأمراء فلم يشعروا إلا والخوازيق تمزق أحشاءهم . أعدم (كوكسا) وسأل الملك عن بقية الأمراء فأخبر أنهم لاقوا حتفهم فحزن ومات .

ولم يكتف (السدورف) بهذه القصة بل يذكر أخرى يعتقد أنها تكملة للسابقة ، والقصتان فى رأيه هما الأصل الذى أخذت عنه قصتنا العربية . وأنى وإن كنت أقر (السدورف) على أوجه الشبه القوية الموجودة بين القصتين إلا أن عنصر الطيران هذا وغيره من العناصر القصصية يجب ألا يقوم دليلا على صحة رأيه خاصة ونحن نعلم

أن هذا العنصر قديم فى العالم السامى نجده فى العهد القديم فى قصة (اليـا) وصعوده إلى السماء ، واعترفت به المسيحية ، ولم ينكره الإسلام . وكأنى بالباحث قد شعر بضعف حججه فوجه حديثه إلى علماء اللغات الهندية ورجاهم أن يعنوا بهـذا النوع من القصص الهندى الذى قد يتصل ببعض قصص ألف ليلة وليلة سواء فى العناصر أو الهيكل ، أخيرا وجه نداءه إلى الذين يعنون بهـذا النوع من الدراسات ورجاهم أن يقوموا على نشر أقدم نص لهذه الليالى ، معتقداً أن النص كلما أمعن فى القدم كلما كانت العلاقة بينه وبين القصص الهندى أقوى وأوضح .

قصصنا فى الغرب

لا أريد فى هذا الفصل أن أحصى القصص التى استعارتها أوربا فى العصور والمناسبات المختلفة من الشرق ، فمثل هـذا الموضوع يحتاج إلى المجلدات ، بل أقصد لفت نظر القارئ العربى إلى ظاهرة هامة لم تكن معروفة للكثيرين من قراء العربية ألا وهى سفر ألف ليلة وليلة وأثره فى الأدب البيزنطى . فهذه الناحية لم تلق الاهتمام الكافى من العلماء لا فى الغرب ولا فى الشرق بخلاف هذه البحوث العديدة التى ظهرت حول هذا الكتاب ومصادره الهندية الفارسية مثلا !

إن أثر ألف ليلة وليلة فى الآداب البيزنطية قديم متفاوت فى القدم ؛ فنحن نجده فى الأغانى البيزنطية الشعبية التى كانت تردها ألسنة العامة فى القرنين التاسع والعاشر ؛ هـذه الأغانى التى تخلد أعمال الرجال العسكريين البيزنطيين الذين قتلوا فى ميادين الحروب دفاعا عن بيزنطة وأملاكها التى كثيرا ما هاجمها العرب وانتقصوها ، أو تصور حياة العالم الإسلامى الشرقى كما تصورها البيزنطى فى تلك العصور . كما نجد بعض هذه الليالى أيضا تبعث إلى خلق ملحمة كاملة ما زالت أغانيها حية حتى اليوم تردها الألسنة ويتوارثها الأحفاد .

أما الفضل فى كشف هـذه الناحية فيرجع قبل كل شىء إلى جهود بعض علماء البيزنطيات وعلى رأسهم العلامة (هنرى جريجوار) فقد عكف هذا العالم البلجيكى سنوات طويلة يدرس هذه الناحية الغامضة من نواحى الأدب البيزنطى حتى انتهى مع زملائه إلى الاعتراف بوجود هذا الأثر الأدبى الإسلامى . وأول من تنبه إلى هذه الظاهرة هو العالم (مكس بودنجر) الذى تنبأ بوجود الملحمة البيزنطية بفضل حصوله على الأغنية المشهورة لابن اندرونيكوس ؛ فهـذه الأغنية البيزنطية ولو أنها ترجع إلى العصور الوسطى إلا أنها لا توجد مستقلة ، بل تكوّن حلقة من سلسلة من الأغانى التى توجد عادة فى الملاحم . وقد وفق هـذا العالم فيما ذهب إليه أحيانا كما صدقت نبوءته حول الملحمة البيزنطية .

أما الملحمة التى تعنينا هنا والتى يجمع العلماء على أنها ترجمة حرفية أو بتصرف لبعض ليالى ألف ليلة وليلة فهى تلك المعروفة فى الأدب البيزنطى باسم (ديجنيس أكريتاس Digénis Akritas) . فهـذه الملحمة وإن كانت من نتاج القرن العاشر الميلادى إلا أن الباحثين لم يهتدوا إليها إلا فى القرن التاسع عشر إذ نشر كل من (ساتاس) و (ليجرند) النص المحفوظ لهذه الملحمة فى (ترابزنت) وقد كان ذلك عام ١٨٧٥ م[1] . وقد قدم الناشران لهذا الكتاب

---

(١) Sathas und Legrand, Editio princeps der Exploits de Digénis Akritas 1875

بمقدمة ضمناها أحكاما ثبتت صحة بعضها كقولها مثلا إن بين هـذه الملحمة وبين الحوادث التى نجدها فى قصة « ذات الهمة والبطال[٢] » شبها قويا ومن حسن الحظ أن هذا الملحمة البيزنطية وصلتنا . كاملة كما أن أغانيها ما زالت ترددها إلى اليوم ألسنة الشعب اليونانى ، ولو أن كثيرا منها سابق لجمعها ووضعها ولا يعرض لبطل من الأبطال الذين جاء ذكرهم فى الملحمة . وتنقسم الملحمة إلى قسمين رئيسيين أولهما يتحدث عن أمير عربى قام بكثير من الأعمال الحربية ، فقـد هاجم بيزنطة ، وفتح كثيرا من أقاليمها ، وأسر ابنة أحـد القواد ، فتبعه أخواها واستطاع أحدهما أن يلحق به ويهزمه ويسترد أختـه التى كان هـذا الأمير العربى ينوى الزواج بها . فلما افلتت من يده ، وكان يعشقها تبعها كما أظهر الرغبة فى اعتناق المسيحية ليتمكن من الحصول عليهـا ، وقد تم له ذلك فعلا إذ أنه ما كاد يعبر الحدود البيزنطية حتى أعلن خضوعه وولاءه للقيصر . وتذهب الملحمة بعيدا وتحدثنا أن هذا الأمير العربى رزق من زوجه هذه بولد جعلت منه الملحمة بطلا وأطلقت عليه اسم (بزيليوس ديجنيس اكريتاس) وقد قام هذا البطل بكثير من أعمال البطولة والفروسية لـكن معركة واحدة لم يخضها ضـد العرب ، وكانت كل أعماله منصبة على محاربة

---

(٢) راجع هذا الـكتاب ص ٤٩ — ٥٢ و ص ٦٢ . وقد نقلت هذه القصة إلى التركية باسم — سيد بطال —

قطاع الطرق ، والحيوانات المفترسة كما أن الملحمة أبت إلا أن يكون كوالده فاختطف لنفسه ابنة أحد القواد .

وقد عنيت الملحمة بمسألة أخرى هامة ألا وهى الدعاية والترويج لسياسة حسن التفاهم مع العرب والعمل على التقريب بين الشعبين ، وقد أيد التاريخ حقا صحة ما ذهبت إليه الملحمة وإن كانت قد انتهت فكرة المهادنة ودفن الأحقاد بين الشعبين بالهجوم الذى قام به (نيكفوروس فوكاس) عام ٩٠٠ م لزحزحة العرب الذين كانوا محاصرين لحصن (منستر) الحالى الواقع غرب (قونية) والذى كان يعرف قديما باسم (مسياس) كما حاول البطل (كركواس) الاستيلاء على البلاد الممتدة على الفرات عن طريق عقد معاهدة مع أمير (مليتين) العربى وهو أبو حفص الذى عقد عام ٩٢٨ م صلحا مع (كركواس) .

والمطلع على هذه الملحمة يجد صدى هذه الأحداث التاريخية العربية البيزنطية كما يقتنع لأول وهلة كيف أن المؤلف البيزنطى استغل كثيرا من الأغانى العربية والقصص الشعبى الذى كان منتشرا فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت وتسرب إلى بعض ليالى ألف ليلة وليلة . ولعل أقدم أغنية جاءت فى تلك الملحمة هى تلك التى تقع فيما يقرب من مائتى بيت وهى المعروفة باسم أغنية (أرموريس) وهى أغنية شعبية نظمت للشعب وفى لغة الشعب ، ويرجح أنها ترجع إلى ما يقرب من عام ٨٦٠ أما (أرموريس)

هذا الذى تخلد هذه الأغنية أعماله فما هو إلا ذلك البطل الذى ثأر لأبيه وحرره من العرب بعد أن ساقوه أسيرا ولكى يتمكن من تحقيق أمنيته هذه جمع جيشا عظيما عبر به الفرات وانقض على المسلمين فهزمهم ومن ثم أخذ يتوغل فى سوريا حتى بلغ عاصمتها . ويرى العلامة (جريجوار) أن (ارمورو بولوس) هذا عبارة عن اسم يشير إما إلى الأسرة التى خرجت من (عمموريا) وإما إلى آخر قيصر من هذه الأسرة ألا وهو (ميخائيل الثالث) . وقد كان أول مسيحى حارب عبر الفرات وانتقم لسقوط عمورية عام (٨٣٨) م . ففى هذه الأغنية نقرأ حقا رغبة الانتقام التى كانت متسلطة على نفوس الجنود البيزنطيين فى الحرب التى دارت رحاها فيما بين عامى ٨٥٩ — ٨٦٣ م .

وليست هذه الأغنية هى الوحيدة التى تستمد عناصرها من ثمرة التفكير الإسلامى بل هناك أغان أخرى معاصرة لها كأغنية (لودفج) كما نجد غير ملحمة (ديجنيس اكريتاس) أخرى تعنى بأمثال (ليو) الثالث أو (قنسطنطين) الخامس .

وفى القرن العاشر ظهرت أغانى أخرى تشيد بأعمال (اندرونيكوس — قنسطنطين) كما نجد مجموعة تعرف بمجموعة (دوكاس) . فمن هو (أندرونيكاس) هذا ؟ هو والد قنسطنطين القائد الشهير المعروف أيضاً باسم (أندرونيكاس دوكاس) الذى انتصر على العرب أيام (ليو) السادس (٩٠٥ — ٩٠٦) إلا أنه اتهم بالخيانة فهرب مع ابنه (قنسطنطين) إلى سوريا حيث احتفى بهما

القصر العباسى احتفاء باهراً . لكن لم يمض زمن طويل حتى نجد (قنسطنطين) هذا يعود إلى بيزنطة ويحسن القيصر استقباله ، كما عطف عليه الشعب وأحبه لذلك استغل هذه الفرصة واغتصب العرش لنفسه . وقد أثر هذا الحادث فى الشعب تأثيرا كبيرا كما يتجلى لنا ذلك من الكتاب الشعبى المعروف باسم (فيتا بازيلى) وهو كتاب وضع فى منتصف القرن العاشر الميلادى ، لذلك لا عجب إذا رأينا المصادر الإسلامية والبيزنطية تهتم بالوالد وابنه وتخصهما بكثير من العناية . ففى ألف ليلة وليلة نقرأ فى قصة عمر النعمان التى كانت مرجعا هاما للمؤلف البيزنطى شيئا عنه فقد جاء فى الليلة التاسعة والثمانين فى وصف الحرب التى قامت بين المسلمين والبيزنطيين أن (ذات الدواهى) قالت : فوحق المسيح ما قوى عسكر المسلمين إلا هذا الشيطان الملك (شركان) فقال (أفريدون) : إنى قد عولت فى غد على أن أصف لهم الصفوف وأخرج لهم الفارس المعروف (لوقا بن شملوط) فإنه إذا برز إلى الملك (شركان) قتله وقتل غيره من الأبطال . أما (شملوط) هذا فهو فى الواقع عبارة عن (ايشملطوس) لقب (أندرونيكوس) الذى وقع فى الأسر كما جاء فى النص اليونانى . ويرجح أيضاً أن قنسطنطين هذا هو (فرفوريوس) الوارد ذكره فى الشهنامة وقد ثبت لدى علماء البيزنطيات أن (بوريفوريوس Porphyrios) الوارد ذكره فى الأغانى اليونانية عبارة عن لقب لقنسطنطين دوكاس ، وذلك لأنه لما اغتصب العرش أطلق عليه اسم (الديك الأحمر) وكلمة (بوريفوريوس) مأخوذة

من لفظ (برپر Purpur) أى قرمزى لأنه يقال إنه لما حضر لاعتلاء العرش كانت برفقته امرأة ترتدى ثوبا قرمزيا . والنتيجة هى أن كلمة (بوريفوريوس) لقب لقنسطنطين دوكاس وهو شخصية تاريخية لعبت دورا هاما فى القرن العاشر الميلادى . ولكى أقرب للقارئ مدى تأثر هـذه الأغانى البيزنطية بالعربية أذكر على سبيل المثال قصة وردت فى النصف الأول من ملحمة (ديجنيس) فهى تتحدث عن أمير تقول عنه إنه حفيد لأمير عربى يدعى (أمبرون) ، وهذا الاسم فى الواقع حيلة من حيل المؤلف أراد منها أن يفهم القارئ أن عناصر الملحمة بيزنطية الأصل ، وتعرف هذه القصة اليوم باسم « مفخرة مليتين Geste de Mélitène » أو «مفخرة عمر Geste d'Omar » . وذلك لأن (أمبرون) كما ثبت الآن ، وكما نعرف من المؤرخين اليونانيين عبارة عن الأمير العربى الشهير باسم (عمرو الملطى) الذى أضر بالبيزنطيين أضرارا بليغة (٨٣٨ — ٨٦٣)م .

وهذا الرأى ليس مجرد فرض بل حقيقة واقعـة إذ ثبت الآن فى (مفخرة مليتين) أو (مفخرة عمر) وجود كثير من العناصر العربية خاصة من القصة المشهورة المعروفة باسم (ذات الهمة والبطال) مع بعض الخلاف اليسير إذ أننا نجد فى قصة ذات الهمة مدحا كثيرا لخصوم (عمر) ألا وهم بنو كلاب ، ومن بينهم الشخصية الشهيرة المعروفة باسم (عبد الوهاب) وأمه ذات الهمة . وفى ألف ليلة وليلة نجد (عمر) ليس بالشخصية المحببة إلى النفس . وقد ثبت أيضاً أن أسرة عمر وابنيـه (رمزان) و (شركان) عبارة عن شخصيتين

جاهليتين حفظ لنا التاريخ اسم أحدهما وهو (رامزان) كاسم لأحد قواد خسرو الثانى المسمى (روميزان — شهرباز — فرخان) . أما شخصية عمر كما تصورها القصة فتنطبق على شخصية الملك الفارسى (خسرو) وطريقة وفاة عمر تذكرنا بما أصاب خسرو فى آخر حياته .

ومن العناصر العربية الأخرى التى نجدها فى هـذه الملحمة البيزنطية الحيلة التى اتبعها (خرزان) لفض بكارة (أريته) فهى ترجمة للحيلة التى اتبعها عمر مع (أبريزة) . هـذا إلى جانب حياة العاشقين التى تصورها الملحمة فهى حياة صحراوية غير مألوفة فى بلاد اليونان أو فى آدابهم . فنحن نقرأ هنا كيف أن اثنين من هؤلاء انصرفا إلى الصحراء بعيـدين عن أعين الرقباء وأقاما زمنا طويلا عنـد نبع من ينابيع المياه التى تتفجر فى أودية الصحراء ، وهناك اضطر العاشق أن يدافع عن حبيبته فقاتل مختلف الأعـداء مثل التنين ، وقطاع الطرق ، وحتى الأسد . والمتأمل لهـذه القصة والمطلع على ألف ليلة وليلة يدرك لأول وهلة أنها ترجمة وترجمة حرفية لقصتنا العربية الواردة فى الليلة الرابعة والأربعين بعد المائة والتى تليها أعنى قصة « حماد الفزارى وعباد بن عيم » وهى تلخص فى أن الفزارى كان قاطع طريق فوقع مرة أسيرا فى يد الملك (كان ما كان) وقبل أن ينفذ فيه حـكم الإعدام طلب إلى الحضور أن يمهلوه حتى يقص عليهم قصة قد تشفع له عندهم ، فلما أجيب إلى رغبته أخبرهم أنه خرج مرة يريد الصيـد والقنص فواجهه جماعة فى الطريق فلما عرفوا قصده رافقوه وساروا معه فى الصحراء طـويلا حتى اشتد

عليهم الحر والعطش ووقفت خيولهم وأيقنوا بالهلاك . وبينما هم كذلك أبصروا من بعيد مرجا فيه غزلان تمرح فانتعشت نفوسهم واتجهوا نحو ذلك المكان وتقدم حماد إلى باب الخباء فرأى فيه شابا جميلا وعن يمينه جارية هيفاء فلما نظر إليها أحبها واشتهاها ، ويدور بين حماد وبين هذا الشاب حديث حول هذه الغادة ينتهى إلى الطعان . واستطاع عباد بن تميم أن يقتل سائر أعوان حماد واستسلم حماد له . وعقب هذا النصر نجد ابن تميم يخاطب هذه الغادة التى يقال إنها كانت أخته بهذه الأبيات :

تقول وقد رأت فى الحرب أختى ... لوامع غرتى مثل الشعاع
ألا لله درك من شجاع ... تذل لحربه أسد البقاع
فقلت لها سلى الأبطال عنى ... إذا ما فر أرباب القراع
أنا المعروف فى سعد وجدى ... وعزمى قد علا أى ارتفاع
أيا حماد قد نازلت ليثا ... يريك الموت يسعى كالأفاعى

ومن ثم دعا بالطعام فحضر وأمر أخته أن تأتى بعشرة خلع من الحرير وتنتهى القصة بخيانة حماد وقتله (عباد) أثناء نومه .

والشىء الجدير بالذكر هنا أن الشاعر اليونانى الذى أخذ هذه القصة فهم الأبيات السالفة كما لو أن المعانى الدالة عليها حقيقة وليست مجازا لذلك تحدث فى الملحمة اليونانية عن التنين والأسد . وغير هذه القصة نجد عناصر أخرى واردة فى الملحمة لا يمكن فهمها إلا على ضوء بعض قصص ألف ليلة وليلة وقصص شعبية أخرى كخطف الحبيبة وهرب المحبين .

الفهرس

الصحيفة

مقدمة ... ... ١ — ٤

مصدر القصة ... ... ٥ — ١٩

تكوين القصة ... ... ٢٠ — ٢٤

من الأساطير السامية ... ... ٢٥ — ٣٥

قصة برج بابل ... ... ٣١ — ٤٣

قصصنا الإسلامى ... ... ٤٤ — ٥٢

سيرة سيف بن ذى يزن ... ... ٥٣ — ٦٠

الهلالية ... ... ٦١ — ٧٠

سيرة عنترة ... ... ٧١ — ٧٧

قصصنا الشعبى المسرحى ... ... ٧٨ — ٨٧

عجيب وغريب ... ... ٨٨ — ٩٦

المتيم ... ... ٩٧ — ١٠٣

لعب التمساح ... ... ١٠٤ — ١١٠

لعب المنار ... ... ١١١ — ١١٨

برلام ويواسف ... ... ١١٩ — ١٥١

حول الف ليلة وليلة ... ... ١٥٢ — ١٧٢

قصصنا فى الغرب ... ... ١٧٣ — ١٨٢

obeikandl.com

شارع القصر العينى **دار الفكر العربى** تليفون ٦٤٦٧٠

قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام :

للدكتور توفيق الطويل

قصة الاضطهاد الدامى الذى أنزله الرومان بالمسيحية ، وسيرة الاضطهاد فى الإسلام . على ما يمتاز به الإسلام من تسامح وحرية . وثمنه ١٨ قرشا

قصة المرض والميكروب . . . . . للدكتور محمد عبد الحميد جوهر

أول كتاب من نوعه يشتمل على طرائف علمية عن الأمراض وميكروباتها ، وطرق علاجها ، صيغت فى أسلوب قصصى بديع . . وثمنه ١٥ قرشا

التعب . . . . . للأستاذ أبو مدين الشافعى

بحث نفسى علمى ، ثمرة تجارب طويلة فى معمل علم النفس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . يدرس التعب ومظاهره ونتائجه وعلاجه وثمنه ٢٠ قرشا

رحلات فى مشارق الأرض ومغاربها . . . . . للرحالة محمد ثابت

خلاصة وافية لأربعة عشر عاما من التنقل فى بلاد العالم . حقائق علمية ثابتة فى أسلوب أدبى جذاب . . وثمنه ٢٢ قرشا

السلام الاجتماعى . . . . . للأستاذ عبد المجيد نافع المحامى

ثورة على النظام الرأسمالى فى مصر والشرق العربى ، وصرخة من الأعماق معلنة فساد النظام الاجتماعى الحاضر ، ورسالة قوية للقضاء على الفقر والجهل والمرض . . وثمنه ٣٠ قرشا

أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء . . . للسيدة وداد سكاكينى

جوانب حية رائعة من حياة المرأة فى الاسلام ، جلتها الكاتبة فى صورة من الأدب الرفيع والقصص الرائع بأسلوب جزل . . . وثمنه ١٥ قرشا

من قصص الأولين (صور من فجر النبوة والإسلام) :

للأساتذة محمد البجاوى وأبو الفضل ابراهيم والسيد شحاته

كتاب يجلو للقارىء أجمل فترة من تاريخ المسلمين بما يعرض من سير زعمائه وقادته ومفكريه . . وثمنه ١٥ قرشا

نشأة اللغة عند الإنسان والطفل : للدكتور على عبد الواحد وافى

فتح جديد فى البحوث اللغوية يجمع بين سداد المنهج وغزارة المادة وجمال الأسلوب يقع فى ٢٠٠ صفحة وثمنه ٢٠ قرشا

الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء : تأليف ج . م . جويو

تعريب سامى الدروبى

ثورة فى عالم الفلسفة الأخلاقية تلغى فكرة الواجب الخارجى ، وتحل محلها فكرة واجب داخلى ناتج عن فيض القوة ، وتدفق الحيوية ، وحب المغامرة وفرح البطولة ، وخصب العاطفة . . وثمنه ٣٥ قرشا

الطاقة الروحية : تأليف هنرى برجسون تعريب سامى الدروبى

من الحركة الفلسفية الجديدة التى فضحت تناقضات الفلسفات المادية ، وأبانت عجزها عن تفسير الظاهرات النفسية ، وأقامت أجل بنيان للفلسفة الروحية . . وثمنه ٣٢ قرشا

أقاصيص لكبار الكتاب الإنجليز (ت ق) .... وثمنه ١٢ قرشا

العالم المفقود « « ١٢ «

الكبرياء والهوى « « ١٥ «

ثلاث قصص رائعة فى أسلوب قصصى جذاب ، نقلها إلى العربية بعيد الترجمة فى مصر الأستاذ محمد بدران المراقب المساعد للثقافة العامة بوزارة المعارف